إنتاج وتجارة الملح في المغرب
من القرن الرابع حتى القرن العاشر الهجري

د. محمد السيد فياض

جامعة طنطا-جمهورية مصر العربية

مدخل:

تأتي عملية إنتاج الملح في المغرب الإسلامي وما يعقبها من توزيع وتجارة لذلك المنتج كأحد أهم العمليات الاقتصادية التي شغلت الساحة المغربية، فلقد شكل الملح عنصراً اقتصادياً هاماً، حتى أن معظم المصادر قد ساوت بين تجارة الملح وتجارة الذهب في تلك الأوقات.

وفي الحقيقة فإن الدراسة تقع في إشكالية هامة وهي الإطار الزمني الدقيق وضبط الحوادث التاريخية، فمعظم المعلومات التي وردت من خلال المصادر التاريخية والجغرافية لم تكن منضبطة بتواريخ وزمن محدد مما أوقع الباحث في حيرة من أمره، فقد كان السبيل الوحيد لتجاوز هذه الإشكالية هو رصد هذه التطورات التاريخية كما جاءت في المصادر مع محاولة ضبط الحوادث تاريخياً في المحور الأخير للدراسة والذي ناقش تطور الكتابة عن انتاج وتجارة الملح حسب زمن كل مؤلف، أما فيما يتعلق بالنطاق الزمني للدراسة فليس مقصوداً به إطار الحوادث التاريخية بل كان المقصود به النطاق الزمني للمصادر التاريخية التي تناولت الموضوع فكان ضبط التاريخ من أقدم إشارة حتى أحدث إشارة من المصادر التي أمكن للباحث الاطلاع عليها.

هذا وقد تناولت الدراسة عدة محاور، مثل مواضع إنتاج وتجارة الملح، وتنظيم وإدارة الملاحات، وكذا الأحوال المعيشية لعمال الممالح في المغرب وهو يعتبر من أهم محاور الدراسة، فضلاً عن الحرف والصناعات المرتبطة بإنتاج الملح، والوقوف طويلاً عند تجارة الملح مع السودان الغربي، ومناقشة تطور أسعار الملح، وكيف شكل الملح قيمة شرائية كبري في بلاد السودان الغربي، ودور مدينة سجلماسة كوسيط تجاري هام في هذه التجارة، وصولاً للمحور الأخير الذي ناقش تطور الكتابة عن إنتاج وتجارة الملح في ضوء مصادر الدراسة.

وفي الحقيقة فإنه لا يعد أمراً هيناً أن يتناول باحث بالتاريخ سلعة ارتبطت بالحياة والطعام والاقتصاد والمجتمع ومعظم مناحي الحياة كما الملح، فهذه المادة التي وصفت في فترات تاريخية عديدة بأنها كالذهب الأبيض، وكان يمهر بها الصداقة، والولاء، فالملح حسب أحد الكتاب "لا يتغير أساسه، فحتى بعد إذابته بالماء يمكن الحصول عليه ثانية بغلي الماء وتبخيره، وفي الإسلام واليهودية تُمهر العهود بالملح لأنها عنصر مستقر. وقد اعتاد المصريون القدماء

كما اليونانيون والرومان استخدام الملح في تقديم القرابين والأضاحي.[١] ورمزوا إلى آلهتهم القديمة بالماء المملح.. كما أن المسيحية ربطت الملح مع الحياة المديدة والبقاء، وكذلك مع المعرفة والحكمة[٢] أضف إلى ذلك أن هذه المادة الخاصة جداً قد ارتبطت بالطقوس الدينية والمواثيق وأعمال السحر، كما ارتبطت أيضاً بفكرة الخصوبة.[٣]

يستشف مما سبق الخصوصية التاريخية للملح في العصور التاريخية القديمة، أما فيما يتعلق بموضوع الدراسة فقد كان للملح في المغرب الإسلامي أهمية كبرى، فقد ارتبط بالحياة الاقتصادية المغربية من حيث الصناعة والتجارة، وأثر على ازدهار اقتصاد العديد من بلدانه.

كما ارتبط الملح أيضاً في الذهنية المغربية بتوثيق العهود، فها هو المهدي بن تومرت يوثق عهده مع بعض القبائل بالملح، فحسب إحدى النصوص "أنه عمل الملح بيده وقال لهم هنا عهد الله وعهد الرسول بيننا وبينكم على الكتاب والسنة" [٤] ويبدو أن الملح وتجارته قد تغلغلا كثيراً في الذهنية المغربية لدرجة أننا نلاحظ وجوده بقوة حتى في فتاوى ونوازل الفقهاء المغاربة.[٥]

مواضع إنتاج وتجارة الملح

كان للحديث عن مواضع إنتاج الملح في المغرب نصيب الأسد في الكتابات المغربية، فقد تعددت هذه المواضع وبطبيعة الحال كان لهذا التعدد دور هام في الوضعية الاقتصادية لمدن المغرب المنتجة للملح فشكلت ثقلاً اقتصادياً واضحاً في تلك الفترات، وإذا أردنا أن نرصد هذه

---

[١] أطلق الرومان على الرجل العاشق اسم " المملح" Salax ومنها اشتقت الكلمة الإنجليزية Salacious التي تعني داعراً أو شهوانياً، وفي جبال البرنييه يذهب الزوجان إلى الكنيسة محملين بالملح في جيوبهما اليسرى لكي يتقيا شر ضعف القدرة الجنسية. انظر مارك كيرلانسكي، تاريخ الملح في العالم "الإمبراطوريات، المعتقدات، ثورات الشعوب، والاقتصاد العالمي"، ترجمة أحمد حسن مغرب، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٥، ص ١٧.

[٢] مارك كيرلانسكي، تاريخ الملح في العالم، ص ٢٠.

[٣] مارك كيرلانسكي، تاريخ الملح في العالم، ص ١٧.

[٤] البيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص ٣٣.

[٥] الونشريشي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١،ج٨، ص ٤٤٣؛ كمال السيد أبو مصطفي، جوانب من الحياة الإجتماعية والإقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوي المعيار المعرب للونشريشي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٦، ص ٦٦، ص٦٧؛ محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن ٦ إلى٩ هـ/ ١٢- ١٥م)، منشورات كلية الآداب، والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، ١٩٩٩، ص ١٥٠ .

المواضع كما جاءت في المصادر وفقاً لخط سير جغرافي فإن نقطة البداية ستكون من مدينة طرابلس[٦] ويبدو أن إنتاج طرابلس من الملح كان فائضاً عن حاجتها فكانت تصدر منه إلى القيروان رغم أن القيروان كانت هي الأخري إحدى نقاط إنتاج الملح.[٧]

وفي السياق ذاته تأتي تونس كأحد مواضع إنتاج الملح في المغرب الإسلامي ويروي لنا الزركشي نصاً يفيد بأنه كان في تونس فندق خاص بتجار الملح بلغت إيراداته ألف وخمسمائة دينار ذهب[٨]، كما كانت بها ملاحة كبيرة اعتبرت مصدراً هاماً لإنتاج الملح لهم ولمن جاورهم[٩] وبالمثل كانت مدينة لمطة نول أحد أبرز مواضع انتاج الملح وكان حصن الملح يقع قريباً منها وهو حصن مبني على ملح معدني، وحسب نص ابن سعيد" ومنه يأخذ المسافرون الملح إلى بلاد السودان" [١٠] وهي ملاحة كبيرة لا يفوق ملحها ملح، يحمل أيضاً إلى البلدان المجاورة لها[١١]؛ فأضحت لمطة نول سوق تجارية عظيمة، حتي أنها أصبحت دار لسك النقود بسبب وفرة التبر الذي تجلبه القوافل من بلاد السودان .[١٢]

وتعد قرطاجنة[١٣] أيضاً أحد مواضع إنتاج الملح[١٤]، وكذلك مدينة بنزرت التي لم تكتف بإنتاج الملح فقط بل قامت فيها صناعات قائمة على الملح مثل صناعة تمليح الأسماك .[١٥]

---

[٦] البكري، المغرب في ذكر أفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت، ص ٨.

[٧] عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، ط١، ١٩٨٣، ص ٢٤٥؛ هناء محمد الفقي، تاريخ الصناعة في المغرب والأندلس خلال عصري المرابطين والموحدين، ٤٤٨-٦٦٨هـ/ ١٠٥٦-١٢٦٩م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، ٢٠١٣، ص ٨٥؛ كما كانت الصحراء الليبية أحد المواضع المنتجة للملح والذي كان يصدر من جادوا إلى كوار. انظر، عوض عبد السلام الشرقاوي، التاريخ السياسي والحضاري لأباضية جبل نفوسة في القرنين الثاني والثالث الهجريين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، ٢٠٠٦، ص ١٧٠.

[٨] تاريخ الدولتين الموحدية، والحفصية، تحقيق، محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط٢، د. ت، ص ١١٧.

[٩] البكري، المغرب، ص ٤٠.

[١٠] كتاب الجغرافيا، تحقيق، إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط٢، ١٩٨٢، ص ١١٣.

[١١] البكري، المغرب، ص ٤٠.

[١٢] حسن محمود، قيام دولة المرابطين "صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطي" ، دار الفكر العربي، ط٢، القاهرة ، ١٩٩٦، ص ٣٥٠.

[١٣] ارتبطت قرطاجنة ببعض الأساطير المتعلقة بالملح مثل ما أورده البكري عن ذيوع أسطورة أنه إذا ظهرالملح على صخور وأحجار قرطاجنة يسارع إليها الخراب، انظر البكري، المغرب، ص ٤٢.

(١٤) البكري، المغرب، ص ٤٤.

[١٥] مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، دار الشئون الثقافية، العراق، ١٩٨٦، ص ١٢٥؛ وكذا راجع البكري، المغرب، ص ٥٨.

كما شكلت القيروان أيضاً مورداً هاماً من موارد الملح في المغرب الإسلامي، ففيها سبخة ملح عظيم طيب نظيف، حسب وصف البكري[١٦]، ويبدو أن أهل القيروان لم يكتفوا بالتعدين عن الملح فقط بل ابتكروا وسائل أخرى لاستخراجه فكان لهم واد في قبالة المدينة يأتي فيه ماء مالح كان يتم استخدامه من قبل الأهالي في العديد من الاستخدامات.[١٧]

وتأتي بسكرة[١٨] أيضاً كأحد أبرز مواضع إنتاج الملح فقد كان بها جبل ملح يقطع منه الملح كالصخر، وكان ذو جودة عالية لذا كان يتم توريده خارج حدود بسكرة[١٩] وحسب نص البكري أن بها جبل ملح يقطع الملح كالصخر الجليل ومنه كان عبيد الله الشيعي[٢٠] وبنوه يستعملونه في أطعمتهم . [٢١]

---

[١٦] المغرب، ص ٢٤.

[١٧] المهلبي، الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، تحقيق، تيسير خلف، دار التكوين للنشر، ط١، دمشق، ٢٠٠٦، ص ٥٠.

[١٨] بسكرة بكسر الكاف وراء بلدة بالمغرب من نواحي الزاب بينها وبين قلعة بني حماد مرحلتين فيها نخل وشجر وقسب جيد هي مسورة ذات أسواق وحمامات وأهلها علماء. انظر ياقوت الحموي، معجم البدان، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧، ج١، ص ٤٢٢.

[١٩] البكري، المغرب، ص ٥٢.

[٢٠] يبدو أن البكري قد خلط بين عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي الأول بالمغرب وبين داعي الدعوة الإسماعيلية أبو عبد الله الشيعي وفي الحقيقة فقد اختلفت المصادر فيما بينها عن اسم أبو عبد الله الشيعي وأصله فيذكر القاضي النعمان أنه يدعى أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن حمد بن زكريا وأصله من الكوفة وأنه كان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة وكان أكثر عملة بالباطنية ونظرا في علم الظاهر نظرا لم يبالغ فيه؛ انظر. القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٧٥، ص ٣٠؛ ويسميه صاحب سيرة جعفر الصاحب أبو عبدالله حسين بن أحمد بن زكريا وأنه كان رجلا صوفيا؛ انظر اليماني، سيرة جعفر بن علي وخروج المهدي صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سليمة ووصوله إلى سجلماسة وخروجه منها إلى رقاده " نشر وتحقيق إيفانوف، مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية بعنوان مذكرات في حركة المهدي الفاطمي، المجلد الرابع جـ٢ ، ديسمبر ١٩٣٦، ص ١٢١؛ ويسميه ابن الخطيب أبو عبد الله الشيعي الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بابن المحتسب؛ انظر . ابن الخطيب ، أعلام الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام" تحقيق سيد كسروي حسن ، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣، جـ١، ص٢٣٠؛ ويسميه خواندمير أبو عبدالله الصوفي؛ انظر روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك الخلفاء، ترجمة، عن الفارسية ، أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب، ط١، ١٩٨٨ م، ص ٢١٩، ويسميه نظام الملك الطوسي أبو عبد الله المحتسب أنظر سياست نامه، ترجمة د/ حسين بكار، دار الثقافة، الدوحة، قطر، ط٢، ١٩٨٧، ص ٢٦٩؛ ويسميه ابن عذاري أبا عبد الله الصنعائي؛ ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب " دار الثقافة ، بيروت ، ط٣، ١٩٨١، جـ ١، ص ١٢٤؛ أما المقريزي فيسميه أبا عبد الله الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي؛ انظر. المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطمين الخلفا "

وإذا أردنا أن نستمر في الرصد التاريخي بالخط الجغرافي سنجد نصاً هاماً لدى صاحب الاستبصار حيث يقول:

" وبين نفزاوة وقسطيلية مرحلة، والطريق بينهما في أرض سواخة وسباخ وملاحات لا يهتدي للطريق بهما إلا بخشب قد نصبت في دهس تشبه الصابون في الرطوبة، فإن أخطأ أحد طريقي تلك الخشب المنصوبة على الطريق سلك في تلك السباخ، وقد هلك فيه العساكر والجماعات على قديم الزمان ممن دخلها ولا يعرف أمرها أو خانته تلك الخشب، وتلك السباخ لا يعلم لها آخر إنما هي قد اتسعت في تلك الصحاري ولا يسلك منها إلا الطريق إلى توزر وإلى بلاد قسطيلية ما يقرب من البر بتلك العلامات، ويقال إنها متصلة ببلاد غدامس، وهذه السباخ كلها ملاليح وفيها موضع بين نفطة والحامة يعرف بالسبع سباخ وفي وسط الطريق المار من مدينة توزر إلى نفزاوة جزيرة صغيرة فيها عين عذبة يشرب منها من يسير على ذلك الطريق، وإذا دخل المسافرون هذا الطريق في أيام الصيف يكادون يهلكون من حرارة الملح ، ويرجع ماؤهم وهو في الزقاق ملحاً ولا تقدر على شربه إلا أن يمزج بسكر أو بعسل..."[٢٢]

وفي الحقيقة فإن النص السابق على طوله يوضح لنا امتداد الرقعة الجغرافية المنتجة للملح فضلاً عن صعوبة السير بهذه الطريق وبالتالي الصعوبة الأكبر في العمل فيها.

على أية حال فإن السواحل الغربية لبلاد المغرب كانت من أبرز مواضع إنتاج الملح وذلك نتيجة توفر الملح البحري، فضلاً عن الملح الصخري الوارد من ممالح الداخل وهو ما نتج عنه أيضاً قيام صناعات ملازمة لهذا النشاط تمثلت في تمليح الأسماك وتصديرها. [٢٣]

وتأتي فاس أيضاً ضمن مواضع إنتاج الملح في المغرب الإسلامي، وحسب إحدى النصوص التي تتحدث عن ملاحة " مجشر" حيث يقول: " ومن النادر في هذه الملاحة أنها تحرث كلها بالزرع فنجد الفدادين في وسط الملح مخضرة ناعمة تتمايل خاماتها فضلاً من الله ونعمة"[٢٤] وفي الغالب فإن تفسير هذا النص هو وجود مساحات من الأرض الخصبة داخل

تحقيق د / جمال الدين الشيال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، د. ت، إيداع سنة ١٩٩٩ جـ١، ص ٥٥، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، تقديم د / محمد مصطفى زيادة، دار التحرير، عن طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ، جـ٢، ص٢١، ص٣٣؛ وكذا راجع محمد فياض، قيام الدولة الفاطمية " حركة التشيع الإسماعيلي وأثرها علي تطور المشروع الشيعي"، دار العالم العربي، القاهرة، ط١، ٢٠١٣، ص١٢٨ والتي تليها.

[٢١] البكري، المغرب، ص ٥٢؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٤٢٢.

[٢٢] مجهول، الاستبصار، ص ١٥٨.

[٢٣] موريس لومبارد، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة، عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، د. ت، ص ٩١.

[٢٤] الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، ط٢، الرباط، ١٩٩١، ص ٣٥.

الملاحات، وعلى جانب آخر يذكر "ابن أبي زرع" أن هناك ملاحة قرب فاس كان طولها ما يعادل ١٨ ميلاً وفيها من الأنواع مالا يشبه بعضه بعضا"[٢٥].

ورغم غرابة هذا الوصف إلا أن ذلك لا يمنعنا من تصنيف هذا الموضع كأحد مواضع إنتاج الملح، ونتيجة لنشاط مدينة فاس في إنتاج الملح نشأت بجانب العمليات التجارية الكبري حركة تجارية فردية قام بها الأهالي الذين كانوا يشترون كميات من الملح بأسعار الجملة ثم يقومون ببيعه مفرقاً[٢٦].

كما كانت مدينة" أريش" إحدى المدن المنتجة للملح أيضاً، ويبدو أنها قد اختصت بأنواع نادرة من الملح، فاحتوت على " ثلاث أعين ملحة يجتمع ماؤها في سباخ فيكون ملحاً، العين الواحدة أبيض، وملح الثانية أحمر، وملح العين الثالثة أصفر"[٢٧].

وفي السياق ذاته تأتي مدينة مكناس كأحد المواضع التي وجد فيها الملح، وبها سوق خاص به [٢٨] وكذا مدينة أودغست والتي تقع علي الطرف الجنوبي من الصحراء، فقد تميزت أيضاً بإنتاج الملح، ويبدو أن تجارة أودغست قد أثرت بشكل كبير على حالتها الاقتصادية، فحسب إحدى النصوص " أن الرجل الواحد من سكانها كانت لديه ألف خادمة أو اكثر"[٢٩] ورغم ما في النص من مبالغة إلا أنه يشي لنا بالحالة الاقتصادية المزدهرة في المدينة والتي انعكست بطبيعة الحال على رخاء سكانها، وحسب أحد الباحثين أنها تحولت لسوق تجاري عظيم نافست سجلماسة وحفلت بطائفة من التجار المياسير[٣٠].

---

[٢٥] الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص ١٧.

[٢٦] ابن الوزان، وصف أفريقيا المعروفة برحلة ليون الأفريقي، ترجمة، عبد الرحمن حميدة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٢٤٠.

[٢٧] البكري، المغرب، ص ١٥.

[٢٨] الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق، محمد ماضور، تونس، ١٩٧٨، ج٢، ص ٣٤٣ والتي تليها؛ فاطمة بلهواري، "التبادل التجاري بين مدن بلاد المغرب خلال القرن ٤ هـ/ ١٠م "، مجلة إنسانيات، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا، والعلوم الاجتماعية، ٢٠٠٨، ص ٤٥.

[٢٩] البكري، المغرب، ص ١٦٨؛ الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي، "الحياة الاقتصادية والاجتماعية، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٥، ص ٨٢.

[٣٠] حسن محمود، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٥٠.

أما ممالح تانتال[٣١] أو تغازي فتعد أحد أبرز مواضع إنتاج الملح في المغرب الإسلامي[٣٢] ، حيث شكلت مورداً لا ينضب إنتاجه ويتم تصديره إلى معظم مدن السودان الغربي.[٣٣]

وفي الحقيقة فإننا إذا أردنا استطلاع مدى أهمية ممالح تغازي فعلينا أن نرصد ذلك من خلال النصوص التاريخية التي عبرت بجلاء عن الأهمية الكبرى لهذه الممالح، فعلى سبيل المثال لدينا نص "ابن بطوطة" المؤرخ بسنة (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م) فيقول عن تغازي" وهي قرية لا خير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها وجدرانها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها وإنما هي رمل في معدن الملح، يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض ويحمل الجمل منها لوحين، ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة "[٣٤] "وهم الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بها"، "ويصل السودان إلى بلادهم

---

[٣١] تانتال، موضع بالصحراء مبني عليه حصن بالحجارة التي تخرج من المعدن وبجوار معدن الملح الماء العذب الطيب. انظر مجهول، الاستبصار، ص ٢١٤؛ هناء الفقي، تاريخ الصناعة في المغرب والأندلس، ص ٨٣؛ وهي تبعد ٢٥ يوماً بقياس ذلك العصر عن سجلماسة في اتجاه الجنوب نحو بلاد السودان انظر، الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي، ص ٨١.

[٣٢] وممالح تانتال هي نفسها تغازي، ولكنها عرفت باسم تغازي بعد ذلك. انظر، حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٥٢، ٣٥٦، ٣٨٧.

[٣٣] البكري، المغرب، ص ١٧١؛ مجهول، الاستبصار، ص ٢١٤؛ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار المعروف برحلة ابن بطوطة، إعداد، الحسيني الحسيني معدي، دار الخلود للتراث، القاهرة ، د. ت، ص ٥٤٢، ص٥٤٣؛ ابن الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٢٦؛ إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط، أفريقيا الشرق، ١٩٩٦، ص ١٤٠؛ حسن حافظ علوي، سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٩٩٧، ص ٣٨٦؛ الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي، ص ٨١؛ محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط" الدولة – المدينة – الاقتصاد" منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط١، ١٩٩٩، ص ٤١٤؛ محمد بن ساعو، التجارة والتجار في المغرب الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر– باتنة – الجزائر، ص ١٣٤، ص ١٥٤؛ هناء الفقي، تاريخ الصناعة في المغرب والأندلس، ص ٨٣، ٨٥؛ عبدالواحد أكمير، مملكة مالي في القرن الرابع عشر وفقاً لابن خلدون ومعاصريه ، دراسة كتاب ابن خلدون ، البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، مكتبة الإسكندرية ، ٢٠٠٦، ص ١٢٧ ، ص١٢٨؛ مارك كيرلانسكي، تاريخ الملح، ص ٤٢ ، ص٤٣ ؛ موريس لومبارد، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي، ص ٢٩٥.

[٣٤] تمد قبيلة مسوفة مضاربها في منطقة قاحلة مجدبة تقع بين سجلماسة في الشمال وأودغست في الجنوب وكانت بعض بطونها تتوغل شرقاً حتي تصل إلي تامدكة وكوكو. انظر حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص ٤٧.

فيحملون منها الملح"، ويستمر في وصف القرية قائلاً : "وقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر".[٣٥]

والنص السابق يوضح لنا بجلاء مدى الوفرة الإنتاجية للملح، وكذا يوضح لنا أن مواضع الإنتاج لم تكن بنفس مستوى مواضع التجارة وهو ما سنراه واضحاً عند الحديث عن سجلماسة وأهميتها كوسيط تجاري في تجارة الملح، وهو أيضاً ما سوف يتم مناقشته عند الحديث عن الأوضاع المعيشية لعمال الملح الذين ذاقوا الأمرين دون أي عائد حقيقي، فكان العامل المنتج يئن من الفقر في حين كان التاجر يعيش أقصى حالات الترف نتيجة التجارة في نفس المنتج.

وإذا أردنا أن نستمر في رصد وضعية تغازي في النصوص التاريخية سنجد أيضاً اتفاقاً حول قضية البناء بالملح فوصفت مبانيها بأنها مبنية بالملح[٣٦] وكذلك فإن البكري قد أفرد نصاً خاصاً لوصف تغازي فتحدث عن كيفية استخراج الملح من ذلك الموضع بأن تحفر عنه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة...، وعليه حصن مبني بحجارة الملح وكذلك بيوته ومشاربه وغرفه كلها مبنية بالملح، ومن هذا المعدن يتجهزان بالملح إلى سجلماسة وغانه، وسائر السودان والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة..."[٣٧] وحسبما ذكر أحد الباحثين أن حجارة الملح كانت هي المادة الوحيدة المتوافرة عملياً للبناء هناك[٣٨] ونفس النص السابق موجود لدى صاحب الاستبصار، وإن كان يزيد عليه بأنه بإزاء معدن الملح الماء العذب الطيب... "[٣٩] أما ابن الوزان فقد انفرد بذكر العديد من التفاصيل، ففي معرض حديثه عن تغازي أو تغازه كما أسماها هو يقول :

---

[٣٥] الرحلة، ص ٥٤٢.

[٣٦] البكري، المغرب، ص ١٧١؛ مجهول، الاستبصار، ص ٢١٤؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ج١، ص ٢٥؛ حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٥٦.

ويقول الكاتب الأمريكي" مارك كيرلانسكي" أن المؤرخ اليوناني " بليني الكبير" كان قد كتب عن مناجم لصخور الملح في هذا الموضع وذكر أن بيوتها شيدت من تلك المادة ويعلق قائلاً "وغالباً ما نتخيل تاغازا مدينة بيضاء لامعة، والحال أنها كانت عرضة لرمال الصحراء التي تحول مباني الملح إلى اللون الرمادي القاتم ومع أن تصميمها قد أبهر السياح لاحقاً ولأن حجارة لملح كانت المادة الوحيدة المتوافرة عملياً للبناء.

انظر مارك كير لانسكي، تاريخ الملح، ص ٤٢.

[٣٧] المغرب، ص ١٧١؛ راجع أيضاً، محمد بركات البيلي، مدينة سجلماسة ودورها في تجارة الذهب مع السودان الغربي، بحث منشور بمجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٨٩، ص٨٢.

[٣٨] مارك كيرلانسكي، تاريخ الملح، ص ٤٢.

[٣٩] مجهول، الاستبصار، ص ٢١٤.

"تغازه مكان مأهول حيث توجد مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام، ويؤخذ هذا الملح من حفر بنيت حولها أخصاص يسكنها أولئك الذين يمتهنون استخراج الملح، والذين يمارسون هذه المهنة ليسوا من سكان هذه البقعة، بل هم أناس من أصل غريب، يأتون مع القوافل ويظلون يعملون عمال مناجم، وهم يستخرجون هذا الملح ويحتفظون به إلى أن تأتي قافلة أخرى تشتريه منهم، ويحمل كل جمل أربعة ألواح من الملح، وليس لعمال تغازه من أقوات سوى التي تجلب لهم من تومبوكتو، أو من درعة الواقعة على مسافة عشرين يوماً من تغازه" .[٤٠]

وربما نستطيع أن نتفهم ما أضافه ابن الوزان من تفصيلات نظراً لطبيعة التحولات الاقتصادية والاجتماعية في القرن العاشر الهجري زمن المؤلف ، ومهما يكن من أمر فقد بات واضحاً مدى الأهمية الكبرى لممالح تانتال أو تغازي، ويبدو أن هذه الأهمية هي التي دفعت القوافل التجارية للتوجه إليها رغم صعوبة الطريق الذي كان يخترق مجالاً قاحلاً[٤١]، فقد كان اختراق الصحراء من أجل الوصول لممالح تغازي يتطلب مجهودات كثيرة لأن المجال الجديد الذي بدأت الطرق الصحراوية تخترقه كان مجالاً جافاً تنعدم فيه المياه على مسافات طويلة ولا وجود لمعالم أو أثر للطريق فيه[٤٢] وكانت تحمل على الجمال بمعدل أربع قطع ملح لكل جمل.[٤٣]

وفي المنحى ذاته تأتي أوليل كأبرز مواضع إنتاج الملح، فهي حسبما سمتها العديد من النصوص " معدن الملح ببلاد المغرب"[٤٤] ويبدو أن ثمة اتفاقاً على أهميتها في إنتاج الملح حيث شكلت مصدراً هاماً من مصادره[٤٥] فيذكر الإدريسي " أنه لا يعلم ملاحة غيرها ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان"[٤٦] ويتفق معه في ذلك ابن سعيد.[٤٧]

---

[٤٠] وصف افريقيا، ص٥٢٦.

[٤١] حسن حافظ، سجلماسة، ص٣٥٣.

[٤٢] حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٧٥، ص ٣٧٦.

[٤٣] ابن الوزان، وصف افريقيا، ص ١٠٨؛ محمد بن ساعو، التجارة والتجار في المغرب الإسلامي، ص١٥٤.

[٤٤] ابن حوقل، صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، القسم الأول، ١٩٣٨، ص٩٢؛ البكري، المغرب، ص١٧١؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ج١، ص١٨؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١ ١٧١.

[٤٥] الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص١٠٧؛ ابن سعيد، الجغرافيا، ص٩٠؛ سلمان محمد البدراني، "إمارة صنهاجة في أدوغست دراسة في أوضاعها السياسة "، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد ٢٠، العدد ٨، ٢٠١٣، ص١٧٠؛ محمد بن ساعو، التجارة والتجار، ص١٣٤.

[٤٦] نزهة المشتاق، ج١، ص١٧.

[٤٧] الجغرافيا، ص٩٠.

كما كان لموضعها الساحلي دور هام في التعدين عن الملح، فهي جزيرة في البحر على مقربة من الساحل[٤٨] وبذلك فإن المصدر الرئيسي لإنتاج الملح بها هو البحر، كما كانت المراكب تأتي لهذه الجزيرة وتُحمل بالملح لتوزيعه بجميع بلاد السودان .[٤٩]

هذا وقد اختصت "بنو جدالة" بتجارة ملح أوليل [٥٠] التي كان لها دور أساسي في تدعيم النشاط التجاري خلال قرون عديدة، وحسب وصف أحد الباحثين لهذه القبيلة بأنها "القوية" [٥١] أما عن سبب استثار " بنو جدالة " بتجارة الملح فهو لأنها تتخذ من مدينة أوليل مركزاً لها حيث يكثر الملح كما أنهاالأوفر مالاً والأكثر استقراراً ، فهي من ناحية قريبة من غانة وشعب صنغانة الواقعة علي الضفة اليسري من منحني النيجر وقريبة من أودغست وطريق سجلماسة، لذلك استطاعت أن تسير متاجرها عبر هذا الطريق وأن تجني من وراء ذلك مالاً وفيراً [٥٢] يشهد على ذلك أن الجغرافيين أشاروا في القرن السادس والسابع الهجريين أن هذه الممالح استمرت في الإنتاج[٥٣]، ويعطينا القزويني معلومات أخرى تصور لنا أهمية الملح في حياة أوليل، "فجميع حيطانها من الملح، وكذلك السواري والسقوف، والأبواب فإنها من صفائح سطحية مغطاه بشيء من جلد الحيوان كي لا تتعسب أطرافها، وأن جميع ما حول هذه المدينة من الأراضي في سبخة، وفيها معدن الملح والشب، وإذا مات بها شيء من الحيوان يلقى في الصحراء فيصير ملحاً " .[٥٤]

تنظيم وإدارة الملاحات:

لم يكن العمل في الملاحات في المغرب الإسلامي يسير بشكل اعتباطي وإنما وفق نظام محدد، وحسب بعض النصوص التي حاولت رسم صورة تنظيم العمل بالملاحات، فيأتي نظام

يعلق أحد الباحثين على ذلك قائلاً " معنى ذلك أن المؤلف لم يكن على علم بوجود ملاحة أخرى في بلاد الصحراء وهي ملاحة تانتال ". انظر، حسن حافظ، سجلماسة، ص٣٥٠.

[٤٨] الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٩٧؛ وانظر أيضاً ، ابن حوقل، صورة الأرض، القسم الأول، ص ٩٢؛ حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٨٦.

[٤٩] الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ١٧؛ ابن سعيد، الجغرافيا، ص ٩٠.

[٥٠] البكري، المغرب، ص ١٧١.

[٥١] حسن محمود، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٧.

[٥٢] حسن محمود، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٧.

[٥٣] حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٥٠.

[٥٤] آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٥، ص٢٦.

القبالة[٥٥] كأحد أهم وسائل إدارتها، ولدى المراكشي ما يفيد بشكل تفصيلي، فحسب إحدى وثائقه وثائقه التي يذكر فيها:

" أنه تقبل فلان بين فلان جميع الأحواض التي بملاحة قرية كذا، وحدد جميع الأحواض كذا بمنافعها ومرافقها الداخلة فيها والخارجة منها وأقبيتها وسواقيها ونصيبها من شرب بئر هذه الملاحة بعد معرفتها بقدر ما تعاقدا فيه القبالة ومعرفة الشرب قبالة صحيحة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار كذا وكذا شهر أولها كذا أو العام أوله كذا بكذا ديناراً دراهم فإن كان دفعها المتقبل ذكرت ذلك، وإن كانت منجمة أو تندفع قبالة كل شهر أو كل عام، ذكرت ذلك ... " [٥٦].

وبذلك فقد كان تنظيم الدفع يتم حسب الاتفاق إما شهرياً أو سنوياً، فضلاً عن أن الملاحات لم تكن مجرد مكان في الخلاء بل كانت أشبه بوحدة إنتاجية تحيط بها المنافع ووسائل الإعاشة وماء الشرب [٥٧]، ويفيدنا المراكشي أيضاً في معرض حديثه عن إنتاج الملح بأن الدفع لا يقتصر على المال فقط بل من الممكن دفع الإيجار عيناً بالملح نفسه، لأن الملاحات لا تنتج الملح بشكل مباشر وسهل بل يتم وفق عمليات معالجة تستلزم مجهوداً كبيراً، لذا فحصول المؤجر من المستأجر على نصيبه من الملح الصافي الخالص يعتبر مكسباً له في حد ذاته.[٥٨]

وفي الحقيقة فقد كان تأجير الملاحات أمراً تقوم به الدولة بالنسبة للملاحات الكبيرة التي تُؤجر إلى جماعات مقابل مبالغ محددة من المال ووفق عقد بينهم كالتعاقد السابق يحدد موضع الملاحة وحدودها ومرافقها ومدة الإيجار، وكذا وجدت ملاحات أخرى خاصة بالأفراد يتم تأجيرها لعمال مقابل اقتسام المؤجر والمستأجر عائدات الملاحة فيكون للعامل الربع أو الثلث، ولصاحب الملاحة الباقي. [٥٩]

ولدينا صيغة أخرى من صيغ عقود إدارة الملاحات أوردها أيضاً المراكشي، فحسب النص التالي: "دفع فلان إلى فلان بن فلان جميع الملاحة التي بقرية كذا بموضع كذا وحدودها كذا

---

[٥٥] نظام القبالة هو أن يتكفّل شخص بتحصيل الخراج، وأخذه لنفسه مقابل قدرمحدّد يدفعه. وهو مايعرف باسم نظام الالتزام، ويعلق الأستاذ الدكتور حسن محمود قائلاً بأن القبالات هي أشر أنواع الضرائب وأن المتقبل هو شر جباة المال جميعاً . انظر، حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص ٣٥٦.

[٥٦] وثائق المرابطين والموحدين ، تحقيق، حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية،ط١ ، القاهرة، ١٩٩٧، ص٥٩.

[٥٧] تحتاج الملاحات إلي أرض منبسطة مستوية السطح ومصدر نظيف للماء. انظر محمد الديب، الصناعات الغذائية في مصر، تحليل في التنظيم المكاني والتركيب والأداء، مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٩٩، ص ٣٩٦ والتي تليها.

[٥٨] وثائق المرابطين والموحدين، ص ٥٩ والتي تليها.

[٥٩] هناء الفقي، تاريخ الصناعة في المغرب والأندلس، ص ٨٦؛ وراجع أيضاً كمال أبو مصطفي، جوانب من الحياة الإجتماعية والإقتصادية والدينية والعلمية في المغرب، ص ٦٩.

ليسقى فلان أحواضها وسواقيها ويجلب شربها الممهد لها من بئر هذه الملاحة إلى أحواضها، ويقوم بجميع مؤنتها حتى يملح ويستخرج ويضعه في فنائها المعد لذلك ويكون ما يحصل فيه للعامل ثلثه أو ربعه ولرب الملاحة فلان ما بقي لعام كذا وعليه الاجتهاد في ذلك بأبلغ طاقته، وعليه اداء الأمانة في سر أمره وجهره، وعرف قدر ما تعاملا فيه من شرب هذه الملاحة، وأحاطا علماً بمبلغ ذلك كله، وشرع فلان بالعمل..." مع إقرار الشهود وعمل نسختين من العقد وكذا مع ملاحظة أن القبالة قد تكون بالفضة والذهب والعروض والسلع.[٦٠]

وبذلك فقد حدد هذا التعاقد نظام الانتفاع بشكل محدد من حيث العائد ومنافع الملاحات، وكذا نظام تخزين الملح في فناء الملاحة، فضلاً عن الشهود ونسخ العقد.

ومن الجدير بالإشارة أن هناك وثائق أخرى قد ارتبطت بعملية إنتاج الملح أوردها المراكشي أيضاً تحت مسمى وثيقة جائحة ملاحة، وهي وثيقة تكتب في حالة تعرض الملاحة لقحط أو جدب، أو في حال تصنيف الملاحة بأنها غير منتجة، وحسب صيغة الوثيقة بعد إثبات أسماء الشهود واسم مستأجر الملاحة وموضعها وتاريخ معاينة الملاحة بأنهم "رأوا أحواضها وبركها لم تملح في ذلك الوقت، وعاينوا ماء بئرها وأنه لا يغمر سقيها، ونظروا إلى الماء في أحواضها وبركها مائعاً لم ينعقد ولا أملح، ولم يروا فيها ولا في شيء من أقبيتها ملحاً مخرجاً مكدساً، "وتنتهي الوثيقة بتوقيع الشهود وإثبات التاريخ.[٦١]

ومما سبق يمكننا أن نستنتج الدقة الكاملة في نظام الانتفاع بالملاحات، وكذا حفظ حقوق كل من المالك، والمستأجر بشكل منظم ودقيق.

أما عن أنواع الملح المستخرجة من الملاحات، فحسب أحد الباحثين أن سوق الملح الأفريقي تميز دوماً بأنواع متعددة من الملح ومعظمها لم يكن صافياً، كما أطلقت عدة أسماء على أنواع الملح التي تحتوي شوائب وعرف التجار والمداوون والطهاة والأفارقة كيف يميزون بين هذه الأنواع.[٦٢]

وفي الحقيقة فإن النصوص لم تبخل علينا ببضعة إشارات نستطيع من خلالها أن نفهم أن الملح المنتج كله لم يكن على نفس مستوى الجودة، بل كانت ثمة أنواع مختلفة تباينت في جودتها ونقائها وبطبيعة الحال أسعارها، فالبكري على سبيل المثال يحدثنا عن ملاحة" أريش" التي كانت تحتوي على ثلاثة أعين يستخرج منها الملح، ملح العين الأولى أبيض، والثانية

---

[٦٠] وثائق المرابطين والموحدين، ص ٤٦٠، ص٤٦١.

[٦١] وثائق المرابطين والموحدين، ص ٥٧٣، ص ٥٧٤.

[٦٢] مارك كيرلانسكي، تاريخ الملح، ص ٤٤.

أحمر، والثالثة أصفر[٦٣]، وحديثه أيضاً عن ملاحة " لمطة" الذي وصف ملحها بأنه "لا يفوقه ملح في جودته"[٦٤]، وكذا ملاحة القيروان التي وصف ملحها بأنه ملح عظيم طيب نظيف"[٦٥]. أما ابن بطوطة فقد تحدث عن ملاحة تغازي التي كانت تتميز بنوع آخر من الملح وهو الملح الصخري الذي كان يتم التعدين عنه من الأرض، والملح الصخري كالألواح الضخمة المتراكبة وكأنها منحوتة وموضوعة تحت الأرض[٦٦] ، كما أن الملح الصخري كان الأهم في عمليات التجارة الكبرى مع بلاد السودان[٦٧] ، وكذلك يحدثنا المراكشي عن أنواع مختلفة مثل "الملح الجريش" الطيب وهو الغليظ ، ونوع رقيق أبيض طيب" .[٦٨]

أما ابن أبي زرع فيحدثنا عن ملاحة فاس ويصفها بأنها غاية في التنوع، بها من الأنواع مالا يشبه بعضها البعض[٦٩]وكذا التجاني الذي يحدثنا عن سبخة "التاكمرت" الموجودة بتوزر فيقول" وأهل ذلك الموضع يذكرون أنهم إذا رفعوا ما على وجهها من الملح ووصلوا إلى تراب الأرض احتفروا فيه قليلاً فوجدوا طبقة من الملح أخرى ثم يحتفرون فيجدون طبقة أخرى، وكذلك إلى سبع طباق وهم يجهدون إلى الطبقة السابعة لأن النصارى يتغالون في اشترائه منهم ويذكرون أن عندهم منافع طيبة متعددة" .[٧٠]

الأحوال المعيشية لعمال الممالح في المغرب

لم تبخل المصادر المتاحة برصد الأحوال المعيشية لعمال الممالح، والتي كان من الواضح أنها في سياقها الأعظم أحوال بائسة، لدرجة أن أحد الباحثين قد أطلق على هذا العمل توصيف "جحيم الملح" لما كان يعانيه الرقيق، والعمال من مشاق في ذلك[٧١]. فقد كان العبيد هم المنوط بهم القيام بهذا العمل الشاق وهو ما رصده ابن بطوطة، في مدينة " تغازي" التي لا يسكنها إلا عبيد مسوفه، وهم الذين يحفرون عن الملح ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة."[٧٢]

---

[٦٣] المغرب، ص ١٥.

[٦٤] البكري، المغرب، ص ٨٤.

[٦٥] البكري، المغرب، ص ٢٤.

[٦٦] الرحلة، ص ٥٤٢.

[٦٧] موريس لومبارد، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي، ص ٢٤٨.

[٦٨] وثائق المرابطين والموحدين، ص ٤٥٩، ص٤٦٠ .

[٦٩] روض القرطاس، ص ٢٤٩.

[٧٠] رحلة التجاني، تقديم، حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٨١، ص ٢٠٧.

[٧١] عبد الإله بنمليح، الرق في المغرب والأندلس، دار الانتشار العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٣٥٤.

[٧٢] الرحلة، ص ٥٤٢، ص ٥٤٣.

ولم يكن لهذه العناصر عمل سوى جمع الملح طوال العام، ومن الواضح أنهم عاشوا في شظف من العيش وتعرضوا لاستغلال سادتهم وهو ما عبرت عنه بعض النصوص من أن "شغلهم جمع الملح طول السنة يأخذون من ثمنه قدر نفقاتهم والباقي يؤدونه إلى ساداتهم.."[٧٣] ولم تقتصر هذه الأعمال الشاقة على الرجال فقط بل شاركت الإماء أيضاً في هذه الأعمال وتحديداً إماء مسوفه[٧٤] كما خضع بعضهم للسخرة في هذه المناجم وهم أسرى الحرب وتحديدًا زمن المرابطين[٧٥]، وقد وصل سوء الحال بهؤلاء العمال إلى حد خطير حتى أنه قد وُجد بعض هؤلاء العمال موتى من الجوع في أكواخهم بسبب عدم قدوم الطعام لهم، ومن المثير للانتباه أن سوء الأحوال البيئية قد شاركت هي الأخرى في سوء حالتهم وهو ما ذكره ابن الوزان الذي تحدث كشاهد عيان عن سوء الأحوال البيئية قائلاً " وفضلاً عن ذلك يهب في الصيف ريح السيروكو الذي يتلف عيونهم ويفقد عدداً منهم بصره، وقد مكثت مرة مدة ثلاثة أيام في تغازة أي الوقت اللازم لتحميل الملح، واضطررت طيلة هذا الوقت لشرب ماء مالح من بعض الآبار القريبة من المنجم" .[٧٦]

ويعلق الباحث الأمريكي " مارك كيرلانسكي" قائلاً " ربما لم تزد تاغازا عن كونها مخيماً بائساً لعمال اعتمدوا كلياً على ما تجلبه لهم القوافل من إمدادات الطعام".[٧٧]

ويعود ابن بطوطة للحديث عن الأوضاع البيئية لهذا الموضوع وعن مدى معاناته فيه حيث وصفها بالحقارة وأنه أقام بها عشرة أيام في جهد لأن ماءها زعاق وهي أكثر المواضع ذباباً [٧٨] فضلاً عن وصف القزويني بأنها "مدينة بلا زرع ولا ضرع" .[٧٩]

كما سكنوا أيضاً في بيوت مبنية من حجارة الملح، وكانت سقوف بيوتهم من جلود الجمال[٨٠]، وعلى جانب آخر فإن ثمة تفاوت كبير بين عمال مناجم الملح وبين محتكري هذه المناجم والقائمين على تجارتها من الأثرياء من حيث استفادة كل منهما من أرباح تلك العملية، ويبدو أن إشكالية السيد والعبد في المنظومة الاقتصادية كانت حاضرة بوضوح في هذا السياق

---

[٧٣] القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ٢٦.

[٧٤] القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ٢٦.

[٧٥] هناء الفقي، تاريخ الصناعة في المغرب والأندلس، ص ٨٤.

[٧٦] وصف أفريقيا، ص ٥٢٦.

[٧٧] تاريخ الملح، ص ٤٢.

[٧٨] الرحلة، ص ٥٤٣.

[٧٩] آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ٢٦.

[٨٠] ابن بطوطة، الرحلة، ص ٥٤٢.

فمارس السيد والمالك احتكاراً على العامل وهو ما عبر عنه القزويني عندما أوضح أن "عبيد تغازة يأخذون من ثمن الملح على قدر نفقاتهم أما الباقي فيؤدونه إلى ساداتهم" .[٨١]

وعلى النقيض تماماً فقد كان التجار الأثرياء هم المنوط بهم العمل في مجال تجارة الملح كأحد الميادين التجارية الكبرى وهو ما انعكس على أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية –وسوف يناقش الباحث ذلك تفصيلاً عند الحديث عن تجارة الملح–التي كانت أقرب إلى حياة الترف والمجون فضلاً عن ارتباط هذه المصالح بشخصيات كبرى[٨٢] فاحتكروا مناجم الملح[٨٣] وقد يمكننا تفسير هذه الرغبة المحمومة في احتكار إنتاج الملح كونه أحد المصادر التي حققت للمغاربة أرباحاً طائلة .[٨٤]

الحرف والصناعات المرتبطة بإنتاج الملح

تميز الملح في المغرب الإسلامي بأنه سلعة إستراتيجية بالغة الأهمية، وقد تأتت أهميته من كونه سلعة تجارية هامة، فضلاً عن الصناعات المتعددة التي قامت عليه، فقد أمدتنا النصوص بفيض من المعلومات عن الصناعات القائمة على الملح، وتأتي دباغة الجلود[٨٥] على رأس تلك الصناعات التي استلزمت وجود الملح كعنصر أساسي نظراً لشهرة بلاد المغرب في دباغة الجلود .[٨٦]

---

[٨١] آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ٢٦.

[٨٢] رفيق بوراس، الأوضاع الاجتماعية بالمغرب في عهد الخلافة الفاطمية (٢٩٦–٦٣٢هـ/ ٩٠٨–٩٧٢م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسطنطينة، الجزائر، ٢٠٠٧–٢٠٠٨، ص ٦١، وانظر في ذلك نص الجوذري الذي يتحدث فيه عن تعليمات الخليفة الفاطمي"المنصور بالله" الذي كان يمنع رجال الدولة من التصرف مع التجار ومزاحمتهم في الأسواق.

انظر، الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق، محمد عبد الهادي شعيرة ومحمد كامل حسين، دار الفكر، القاهرة، ١٩٥٤ م، ص ٦٢؛ رفيق بوراس، الأوضاع الاجتماعية بالمغرب، ص ٦٢.

[٨٣] فاز المرابطون بالسيطرة والسيادة على مناجم الملح خاصة في عهد يوسف بن تاشفين" (٤٥٣ –٥٠٠هـ/ ١٠٦١ –١١٠٦ م). انظر هناء الفقي، تاريخ الصناعة في المغرب والأندلس، ص ٨٤.

[٨٤] محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، ص ٤١١.

[٨٥] تعني الدباغة معالجة الجلود بإصلاحها وتلينها وإزالة ما يفسدها من العفونة والرطوبة واستخدام مواد مساعد تعين على إزالة الصوف والشعر من الجلود بسهولة. انظر، عطا محمد شحاتة ريه، اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين، دار الكلمة، ط١، دمشق، ١٩٩٩، ص ١٣٦.

[٨٦] ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٧٢؛ الزهري، كتاب الجغرافيا، ص ١٠٨؛ حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٨١؛ حسين علي المسري، تجارة العراق في العصر العباسي، جامعة الكويت، ١٩٨٢، ص ٣٦٦؛ عطا محمد شحاتة، اليهود في بلاد المغرب، ص١٣٦؛ قموح مزيد، الدرر المكنونة في نوازل مازونة لأبي زكريا يحيى بن موسى المازوني، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسطنطينة

وقد اشتهرت بنزرت [٨٧] ونول لمطة [٨٨] فاس بدباغة الجلود [٨٩]. كما كانت صناعات تمليح الأسماك والسردين أحد أهم الصناعات القائمة على الملح[٩٠] ، فضلاً عن صناعات تمليح وحفظ الطعام بصفة عامة[٩١]، ففي مدينة بادس اشتهرت صناعات تمليح أسماك السردين وهو ما رصده الوزان[٩٢] وكذا مدينة " تاغزة" التي قال عنها الوزان "أنه أقام فيها ثلاثة أيام ولاحظ رائحة السردين كانت تفوح من الجدران والشوارع[٩٣] ، وبالمثل " جبل بني منصور" الذي اشتهر بإنتاج السردين المملح[٩٤]، "وجبل بني شيبية" وهو الموضع الذي" يرتفع فيه سعر السردين المملح بشكل بالغ" .[٩٥]

وقد اشتهرت مدينة "بنزرت" أيضاً بصناعة تمليح الأسماك وتصديرها إلى كافة أنحاء المغرب نتيجة كثرة" الحيتان بها" وحسبما عبر " صاحب الاستبصار" قائلاً" مدينة بنزرت لها نهر كبير يصب في البحر وفيه حوت كثير بالقرب منها بحيرة كبيرة تنسب إلى بنزرت يدخل إليها ماء البحر وهي ملحة وفيها أنواع من الحوت ما لا يحصى ويصطاد فيها كل شهر من

٢٠١٠– ٢٠١١، ص ٥٠ ؛ فاطمة بلهواري، التبادل التجاري، ص٨؛ محمود إسماعيل ، الأدارسة " حقائق جديدة، مكتبة مدبولي،ط١ ، القاهرة ، ١٩٩١، ص ٧٣؛ موريس لومبارد، الجغرافيا التاريخية، ص ٢٤٨؛ هناء الفقي، تاريخ الصناعة، ص ٨٦.

[٨٧] حسين علي المسري، تاريخ التجارة، ص ٣٦٦.

[٨٨] حسن محمود، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٥٥.

[٨٩] حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص ٣٥٥؛ محمود إسماعيل، الأدارسة، ص ٧٣، هذا وقد احتوت فاس في في أواخر العصر الموحدي علي ست وثمانون داراً للدباغة. انظر. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير " العصر الإسلامي " الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦، ص ٥٢٣؛ محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (٦١٠ – ٨٦٩هـ / ١٢١٣ – ١٤٦٥م) دار القلم، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧، ص ٢٨٤.

[٩٠] الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٢٠؛ مجهول، الاستبصار، ص ١٢٥؛ ابن الوزان، وصف أفريقيا، ص ٣٢٨، ٣٣٠؛ بان على محمد البياتي، النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن (٣–٥ هـ/ ٩–١١م)، رسالة ماجستير غير منشورة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٤، ص ٨١؛ محمد بن ساعو، التجارة والتجار في المغرب الإسلامي، ص ١٥٤؛ موريس لومبارد، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي، ص ٩١.

[٩١] جمال فوزي محمد، "أوضاع السودان الغربي في عهد منسا موسى (٧١٢–٧٣٨هـ/ ١٣١٢–١٣٣٧م)"، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، العدد التاسع، المجلد الأول، مارس ٢٠٠١، ص ٢٧٠.

[٩٢] وصف أفريقيا، ص ٣٢٨.

[٩٣] وصف أفريقيا، ص ٣٣٠

[٩٤] ابن الوزان، وصف افريقيا، ص ٣٣٢.

[٩٥] ابن الوزان، وصف افريقيا، ص ٣٣٦.

الشهور الأعجمية نوع من الحوت لا يوجد بها ذلك الشهر بعينه في العام القابل ولها غلة عظيمة فإن ما يحمل الحوت إلى جميع بلاد أفريقية، وأكثر حوت تونس إنما هو من بنزرت وأجناس هذا الحوت وأنواعه تتصبر فتبقى أعواماً صحيحة الجرم لذيذة الطعم" .[٩٦]

والنص السابق يوضح أهمية صناعة تمليح الأسماك في بنزرت ومدى قيمة عوائدها الاقتصادية، وفي السياق ذاته كان الشحم المملح أحد صناعات الطعام ذو القيمة الغذائية الكبرى، الذي اعتمد عليه بعض سكان المغرب مثل: صحراء توات بصحراء المغرب الأوسط والتي كانت تتسم بالجفاف وقسوة الطبيعة وكان معظم طعامهم من الشحم المملح الوارد من تجار تلمسان وفاس. [٩٧]

ومن الجدير بالإشارة أن سكان السودان الغربي قد اعتمدوا بشكل كبير على الأسماك المملحة فكانوا يصطادون الأسماك ويقومون بتمليحها وحفظها وتخزينها[٩٨]. ومن الغريب أيضاً أنهم كانوا يقومون باصطياد حيات طويلة غليظة يقطعون رؤوسها ويطبخونها بالملح والشيح ويأكلونها كأطيب أنواع الطعام لديهم .[٩٩]

على جانب آخر فلم يقتصر استخدام الملح على صناعات الطعام وتمليح الأسماك فقط بل كانت له استخدامات كثيرة في المجال الطبي[١٠٠] ويبدو أن ثمة أنواعاً معينة كانت تدخل في الاستخدامات الطبية وهو ما عبر عنه التجاني في وصف طريقة أهل توزر وتعدينهم عن الملح ووصولهم لطبقة الملاح السابعة في الأرض نظراً لارتفاع سعره وبأن النصارى–أي الأوربيين– يتغالون في اشترائه لأنه " له عندهم منافع طيبة متعددة" .[١٠١]

---

[٩٦] مجهول، الاستبصار، ص١٢٥.

[٩٧] ابن الوزان، وصف افريقيا، ص١٣٤؛ جمال فوزي، أوضاع السودان؛ الغربي، ص٢٧٠؛ مزدور سمية، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (٥٨٨–٩٢٧هـ/ ١١٩٢–١٥٢٠م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٨–٢٠٠٩، ص ٦٦.

[٩٨] الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٢٠.

[٩٩] الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ١٠٧.

[١٠٠] التجاني، رحلة التجاني، ص ٢٠٧؛ بان علي محمد، النشاط التجاري في المغرب الأقصى، ص ٨١.

[١٠١] رحلة التيجاني، ص ٢٠٧.

تجارة الملح مع السودان الغربي " معادلة ملح – ذهب"[١٠٢]

تكاد تتفق معظم النصوص المتاحة على أهمية التجارة بين بلدان المغرب الإسلامي والسودان الغربي وخصوصاً تجارة الملح ومدى القيمة الشرائية الضخمة للملح في بلاد السودان الغربي حتى أن معظم من كتبوا قديماً وحديثاً اتفقوا على أنه كانت تتم مبادلة الملح القادم من

---

[١٠٢] تشمل بلاد السودان منطقة واسعة في غرب أفريقيا تنحصر بين الصحراء في الشمال والغابات الاستوائية في الجنوب وتمتد شرقاً إلى حدود مرتفعات الحبشة وغرباً إلى المحيط الأطلسي ويقسم السودان إلى عدة أقسام السودان الغربي ويشمل حوض نهر السنغال ونهر غامبيا والمجرى الأعلى لنهر الفولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر ، القسم الثاني السودان الأوسط ويشمل حوض بحر تشاد، القسم الثالث السودان الشرقي يشمل الحوض الأعلى لنهر النيل وقد عرف قديماً باسم بلاد الزنج انظر، حسن الصادقي، أضواء على ممالك غرب أفريقيا وعلاقتها ببلاد المغرب، مقالة بمعهد الدراسات الأفريقية ، الرباط ، .www.Islamqafrica.net ، تاريخ الدخول ٥/٦/ ٢٠١٥ ؛ وانظر أيضاً محمد بن ساعو، التجارة والتجار في المغرب الإسلامي، ص ١٣٢، ومن الجدير بالذكر أن مصطلح " معادلة ملح– ذهب" هو للباحث حسن حافظ علوي في كتابه سجلماسة، ص٣٨٠؛ وفي الحقيقة فإن العرب تنبهوا منذ منتصف القرن الأول للهجرة إلى أهمية السودان وخاصة مدينة " أودغست" وكان أول هؤلاء القادة عقبة بن نافع. انظر سلمان محمد سلمان، إمارة صنهاجة في أودغست، ص ١٦٦ ولدينا نص " ابن عبدالحكم" الذي يتحدث فيه عن غزو عبيدالله بن حبيب فيقول." وغزا عبيد الله حبيب بن أبي عبيدة الفهري السوس وأرض السودان فظفر بهم ظفراً لم ير مثله وأصاب ما شاء من ذهب".

انظر، ابن عبدالحكم، فتوح أفريقيا والأندلس، تحقيق، عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٤، ص ٩٤؛ وراجع أيضاً . محمد بن حسن، القبائل الأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح الأربع للنشر، تونس، ١٩٨٦، ص ٨١. كما حرصت كافة القوى السياسية التي تعاقبت على بلاد المغرب في الإبقاء على علاقات دبلوماسية واستراتيجية ممتازة مع السلطات القائمة على حكم مدن السودان الغربي. انظر على سبيل المثال، السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، ص ٧٤؛ إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادي الإسلامي، ص٥٢،ص٥٣؛ أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة، أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، د. ت، ص ٣٣٠؛ خالد بلعربي، تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في العصر الوسيط، بحث منشور بمجلة الواحات للبحوث والدراسات، المركز الجامعي غرداية، الجزائر، العدد ١٥، ٢٠١١، ص٣٧، ص٣٨؛ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب، ص ٦٨؛ محمد بن ساعو، التجارة والتجار في المغرب الإسلامي، ص ١٣٢. وفيما يتعلق باستبدال الملح بالذهب يعلق الباحث الأمريكي مارك كيرلانسكي قائلاً ،لطالما قيل أن الملح قد استبدل بوزنه ذهباً في الأسواق..، وهو أمر مبالغ فيه جاء عن طريق سوء الفهم من طريقة التبادل الصامت في غربي افريقيا...، ففي مناطق إنتاج الذهب في افريقيا الغربية قد تعرض حفنة من الذهب ثم يأتي تاجر الملح ليضع كمية من الملح بثمن تلك الحفنة، ويبدل الطرفان حجم كومتيهما إلى أن يصلا إلى اتفاق. انظر مارك كير لانسكي، تاريخ الملح في العالم، ص ٤٣.

بلاد المغرب بذهب بلاد السودان نظراً لمدي حاجتهم الماسة له[١٠٣] حتى أن أحد الباحثين قد قرن الملح بالذهب ووصفهما بأنهما البضاعتان الثمينتان .[١٠٤]

هذا وقد عبرت بعض النصوص عن مدى الحاجة القصوى للملح في بلاد السودان مثل نص القزويني الذي قال فيه:" الملح بأرض السودان عزيز جداً "[١٠٥] أو كقول " صاحب الاستبصار" أن الملح يتم تبادله بالذهب لعدمه عندهم" [١٠٦] أو كنص " ابن الوزان" الذي وصف الحال في تومبوكتو" بأنه هناك افتقار شديد للملح .[١٠٧]

وهو ما يؤكده ابن فضل الله العمري قائلاً" إن الملح معدوم في داخل بلاد السودان، فمن الناس من يغرر ويصل به إلى أناس منه يبدلون نظير كل صبرة ملح مثله من الذهب..." ويزيد ابن فضل الله العمري" بأن رجلاً دخل بملح إلى إحدى مدن السودان الغربي فأهدى إلى ملكها شيئاً من الملح فأعطاه الملك جاريتين بدلاً من الملح ثم أرسل بعد ذلك بعض الأبقار والأغنام"[١٠٨] ورغم المبالغة الظاهرة إلا أنها لا تخلوا من دلالات اقتصادية توضح قيمة الملح في بلاد السودان الغربي.

---

[١٠٣] البكري، المغرب ، ص ١٥٨؛ ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، نشره، ردولف، منشورات أفريقيا الشمالية، الرباط، ١٩٥٨، ص ٧٧؛ مجهول، الاستبصار، ص ٢١٩؛ ابن سعيد، بسط الأرض، تطوان، ١٩٥٨، ص ٤٧؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق، كامل سلمان الحبوري، دار الكتب العلمية ،ط١، بيروت، ٢٠١٠، ج٤، ص٦٠؛ القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تقديم، فوزي محمد أمين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ،٢٠٠٥، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية، ج٥، ص ١٦٤؛ إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادي، ص ١٢٣؛ الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي، ص ٨١، ١٦٨، ١٧٦، ١٧٧؛ بان على ، النشاط التجاري في المغرب الأقصى، ص ٨١، ٨٧، ٩١، ١١٣؛ حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٨٠؛ عبدالواحد أكمير، مملكة مالي، ص ١٢٩؛ محمود إسماعيل، الأدارسة، ص ٤١ ؛ محمود إسماعيل، الأسطغرافيا والميثولوجيا، دار رؤية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٣٢؛ محمد بن ساعو، التجارة والتجار، ص ١٣٣ ، ص١٣٤؛ محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، ص ٤١٧؛ موريس لومبارد ، الجغرافيا التاريخية، ص ٢٩٥؛ هناء الفقي، تاريخ الصناعة في المغرب والأندلس، ص ٨٤ .

[١٠٤] الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي، ص ١٦٨

[١٠٥] آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ٢٦.

[١٠٦] مجهول، الاستبصار، ص ٢١٩.

[١٠٧] وصف أفريقيا، ص ٥٤٠.

[١٠٨] ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٤، ص ٦٠.

وفي المنحى ذاته تؤكد إشارة أخري عن مبادلة الملح هناك بالخدم[١٠٩] وعلي الجملة فإن " حاجة ملوك السودان كانت إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام فإنه لا قوام لهم إلا به"[١١٠] .

كما جاء الملح بمثابة عملة شرائية في مختلف الأقاليم السودانية[١١١] هذا وقد عبرت النصوص عن ذلك ، فالبكري وصفه بأن له غلة عظيمة[١١٢] أو كما قال أيضاً أن تجارة أهل بلد كوكو بالملح وهو نقدهم[١١٣] ، وقد ذكر نفس المعنى عند حديثه عن غانه فقال " وأكثر ما يتجهز إليها بالملح والودع والنحاس..." وحواليها من معادن التبر كثير وهي أكثر بلاد السودان ذهباً[١١٤] ونفس ذلك النص نجده لدى صاحب الاستبصار ولكنه ذكر كلمة كوغة بدلاً من كوكو[١١٥]، أما ابن بطوطة فقد قال" وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة"[١١٦] ، ونجد أيضاً لدى ابن الفقيه نصاً ذا دلالة هامة، ففي معرض حديثه عن غانة

---

[١٠٩] ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص٧٧؛ وراجع أيضاً . مارك كيرلانسكي، تاريخ الملح في العالم، ص٤٢. وهناك بعض الكتابات التي أخذت منحى مبالغ فيه وصل لحد الأساطير في حاجة بلاد السودان للملح مثل الأسطورة التي تقول إن السكان كانوا يبيعون أبناءهم بقطعة ملح لا تساوي حجم أقدامهم انظر حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٨٥. أو ما قيل إن بعضهم كان يحمل قطعة ملح يلحسونها عن تناول الخبز حتى لا يستهلكونه بكثرة. انظر، محمد بن ساعو، التجارة والتجار في الغرب الأوسط، ص ١٥٤.

[١١٠] صورة الأرض ، ص٩٠ ويعطينا ابن فضل الله العمري نصاً يفيد بأن بعض بلاد السودان الغربي كانت تُخزن الملح في الصهاريج والأبراج كإجراء استراتيجي واحترازي ضد أي حصار قد تتعرض له المدينة. راجع ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٤، ص ١٠٣.

[١١١] محمد بن ساعو، التجارة والتجار في الغرب، ص ١٥٤؛ ولم تقتصر عائدات بيع الملح على السودان الغربي فقط بل كان الأوروبيين يشترون أنواع معينة من الملح بأسعار مرتفعة حيث يدخل في العديد من الاستخدامات الطبية. انظر، التجاني، الرحلة، ص ٢٠٧؛ وراجع أيضاً . محمد بن ساعو، التجارة والتجار، ص ١٥٥.

[١١٢] المغرب، ص ١٧١.

[١١٣] المغرب، ص ١٨٣، وكوكو هي واحدة من أشهر بلاد السودان وتقع جنوب تامدكة بحوالي ٢٧٠كم وهم على نهر يسمى كوكو، هذا ويصف النفوسي عامة أهل كوكو بأن لباسهم الجلود وحليهم الذهب. انظر. النفوسي، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ص ١٧٤؛ وسموا كوكو لأن ما يفهم من نغمة طبلهم ذلك أثناء جلوس ملكهم حيث يقوموا بضرب الطبلة له. انظر، البكري، المغرب، ص ١٨٣؛ عوض الشرقاوي، التاريخ السياسي والحضاري لإباضية جبل نفوسة، ص ١٦٨، ص١٦٩.

[١١٤] البكري، المغرب، ص ١٧٩.

[١١٥] الاستبصار، ص ٢٢٢.

[١١٦] الرحلة ، ص ٥٤٣؛ محمد بن ساعو، التجارة والتجار، ص ٤٥١؛ محمد زنبير، المغرب في العصر الوسيط، ص ٤١٩.

قال " وبلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتاً في الرمال..."[١١٧] ، ويبدو أن مثل هذه العوائد قد أسالت لعاب اللصوص فانتشرت عصابات السطو ضد هذه القوافل [١١٨]

يتضح مما سبق أن التجار الذين قاموا بعمليات تجارة الملح قد شكلوا ثروات طائلة من وراء هذه التجارة[١١٩] وهو ما انعكس على أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية التي كانت أقرب إلى حياة الترف والمجون[١٢٠] لاسيما وسعر الملح كان في ارتفاع مستمر[١٢١]، ويعلق موريس لومبارد على ذلك قائلاً : " إن بلاد السودان كانت تفتقر للملح وتلح في طلبه ، وبأنه كان مادة زهيدة بحد ذاتها ولكنها اكتسبت أثمانها المرتفعة نظراً لطول وصعوبة نقلها وللبلاد التي بحاجة إليها، ويستشهد بأحد النصوص الذي يقول بأنهم كانوا يحملون بضائع لا قيمة لها ويعودون بأحمال ثقيلة من الذهب على جمالهم .[١٢٢]

يتضح إذن أن هناك فجوة كبيرة بين القيمة الشرائية للملح في بلاد المغرب والقيمة الشرائية الباهظة في السودان ويرجع ذلك إلى القاعدة الاقتصادية الأهم والتي تتمثل في العرض والطلب، فمعظم النصوص المتاحة لدينا تقر بالقيمة الاقتصادية للملح في بلاد السودان وبحاجتهم الملحة إليه، وحسبما ذكر أحد الباحثين قائلاً " إن الجنوب كان في أشد الحاجة لملح الشمال حيث إنهم كانوا في بلاد السافانا الحارة ويفقدون كميات كبيرة من الأملاح ومن ثم كانوا في أمس الحاجة إليه وقد كان الشماليون يعرفون هذه الحقيقة فكانوا يغالون في طلب الذهب " .[١٢٣]

والجدول التالي معظم ما ورد من معلومات في المصادر عن تطور أسعار الملح، وكذا عن الاختلاف بين السعر في أماكن الإنتاج وأماكن البيع:

---

[١١٧] مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٣ م، ص ٨٧.

[١١٨] مارك كيرلانسكي، تاريخ الملح في العالم، ص ٤٢.

[١١٩] إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادي، ص ١٢٥.

[١٢٠] رفيق بوراس، الأوضاع الاجتماعية في المغرب، ص ٦١.

[١٢١] محمد بن ساعو، التجارة والتجار، ص ١٣٤.

[١٢٢] الجغرافيا التاريخية، ص ٢٦٥، ص ٢٦٦، وكذا راجع، محمد بركات البيلي، مدينة سجلماسة ودورها في تجارة الذهب مع السودان الغربي، ص ٨١.

[١٢٣] صبحي ادريس، تاريخ مدينة سجلماسة في العصر الإسلامي منذ إنشائها حتي استيلاء المرينيين عليها (١٤٠ – ٧٥٧هـ / ٦٦٨ – ١٢٦٩ م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ١٩٩٥، ص ٢٦٦.

المؤرخ	سنة الوفاة	ما ورد لديه من الأخبار حول أسعار الملح
ابن حوقل	(٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)	يذكر أن حمل الجمل من الملح الداخل إلى بلاد السودان وأقاصيه قد يصل من مائتين إلى ثلاثمائة دينار.[١٢٤]
القزويني	(٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)	يذكر أن سعر الملح بأن كل " وقر" بمائة دينار ويسبق حديثه بالقول أن الملح بأرض السودان عزيز جداً .[١٢٥]
ابن أبي زرع	(٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)	يعطينا معلومات عن أسعار الملح في فاس وهي أحد مواضع الإنتاج سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م كان حمل الملح في فاس بدرهم[١٢٦] ،ثم صار بعد ذلك كل عشرة أصوع في فاس بدرهم[١٢٧] ، وفي سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م كان حمل الملح بدرهم .
ابن بطوطة	(٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)	يقول إن "حمل الملح كان يباع في إيوالتين بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وربما ارتفع إلى أربعين مثقالاً بمدينة مالي، ويقول وبالملح يتصارف السودان كما

---

[١٢٤] صورة الأرض، ص ١٠١؛ الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي، ص ٨١، ١٦٢، ١٧٦؛ حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٨٥؛ محمد بن ساعو، التجارة والتجار، ص ١٥٤؛ محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، ص ٤١٢.

ويعلق بعض الباحثين بأن حمل الملح يتراوح بين ١٢٥و ١٥٠كيلو جرام، وكما علق أحدهم قائلاً" أننا إذن أمام ملح يساوي ثمناً غالياً جداً، فإذا قدرنا أن الدينار يزن في قيمته المتوسطة ٣,٨٠ جرام يكون حمل الجمل يساوي في حده الأدنى ٧٦٠ جراماً من الذهب وفي حده الأعلى ١١٤٠ جرام، انظر، محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، ص ٤١٢، ويعلق آخر بأن الثلاثمائة دينار يعادلون وقتها كيلو غرام من الذهب، انظر حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٨٥، وراجع أيضاً ، محمد بن ساعو، التجارة والتجار، ص ١٥٤.

[١٢٥] آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ٢٦.

[١٢٦] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٣٠٢؛ السلاوي، الاستقصا، ج٢، ص ٤٣.

[١٢٧] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص٩٥، ص٩٦؛ محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، ص ٢٩٦؛ محمد بن ساعو، التجارة والتجار، ص ٦٨؛ هناء الفقي، تاريخ الصناعة في المغرب والأندلس، ص ٨٤، ويرجع ذلك إلى تناقص إنتاج ملاحة فاس، انظر، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٧؛ هذا وقد كان الملح أحد السلع الذي يباع بالصاع. انظر الحريري، المغرب والأندلس في العصر المريني، ص ٢٩٦؛ وعن الصاع انظر، فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة، كامل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية، د.ت، ص ٦٣.

		يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعاً ويتبايعون به" .(١٢٨)
ابن الوزان	(٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م)	يقول إنه كان موجوداً في تومبكتو وكان سعر حمل الملح وقتها ثمانين ديناراً " .(١٢٩)

والجدول السابق يوضح لنا أسعار الملح كما جاءت في المصادر المتاحة، وكذا توضح لنا الفرق بين أسعار الملح في بعض نقاط الإنتاج في المغرب التي كانت أسعاراً زهيدة، وبين مثيلتها في السودان الغربي التي كانت مرتفعة إلى حد كبير وفقاً لقاعدة العرض والطلب.

تفصح العديد من النصوص عن بعض العادات الغريبة المصاحبة لتجارة الملح مع مدن السودان الغربي والتي ارتبطت بتجارة الملح وكانت السبب في أن يطلق عليها اسم " التجارة الصامتة" ففي معظم الأحيان كان كل تاجر يضع بضاعته في أحد المواضع المتعارف عليها ليأتي السودانيون ويبادلونها بالذهب وكان ذلك يتم بصمت دون أن يرى أو يتكلم التجار مع بعضهم البعض.(١٣٠) ويصف مارك كيرلانسكي هذه المشهد قائلاً " ففي مناطق إنتاج الذهب في أفريقيا الغربية قد تعرض حفنة من الذهب ثم يأتي تاجر الملح ليضع كمية من الملح بثمن تلك الحفنة ، ويبدل الطرفان حجم كومتيهما إلى أن يصلا إلى اتفاق لا يتبادل الطرفان أي كلمة في هذه المبادلة التي قد تستغرق أياماً، وغالباً ما يأتي تجار الملح ليلاً ليعدلوا حجم كومتهم ثم يغادروا دون أن تراهم الأعين، وربما أن هذه الطريقة كانت السبب في الظن أن الملح يستبدل في أفريقيا بوزنه ذهباً، والحق أن كومتي الملح والذهب لم تكونا أبداً متساويين وزناً .(١٣١) وقد حاول أحد الباحثين تفسير الصمت الذى يقترن بهذا النوع من التجارة قائلاً " والحقيقة أنه إذا

---

(١٢٨) الرحلة، ص ٥٤٣؛ حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٨٧؛ محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، ص ٤١٩. ويعلق أحد الباحثين قائلاً وهذا السعر الذي ذكره ابن بطوطة يعادل ٤٧.٢٠ جرام للحمل الواحد من الملح بولاته و١٤١.٦ جرام بمالي. انظر ، حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٨٧ كما أن قيمة الملح كانت تزداد عند النقل من المناجم، فحمل الحمل الذي لا يتجاوز عشرة مثاقيل ذهبية في والاتا يبلغ ثلاثين في مدينة مالي. انظر عبد الواحد أكمير، مملكة مالي، ص ١٢٩.

(١٢٩) وصف أفريقيا، ص ٥٤٠.

(١٣٠) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٩؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٤، ص ٦٠؛ بان علي محمد، النشاط التجاري في المغرب الأقصى، ص ٨٧؛ مارك كيرلانسكي، تاريخ الملح في العالم، ص ٤٣؛ محمد بن ساعو، التجارة والتجار في المغرب، ص ١٣٣، والتي تليها، وللوقوف على العديد من التفاصيل التي تتعلق بالتجارة الصامتة راجع، حاتم الطحاوي، التجارة الصامتة، مجلة العربي، الكويت، مايو ٢٠١٦.

(١٣١) تاريخ الملح في العالم، ص ٤٣. وراجع أيضاً ، محمد بركات البيلي، مدينة سجلماسة ودورها في تجارة الذهب مع السودان الغربي، ص ٨١.

حاولنا معرفة مغزي التجارة الصامتة ، أو كنه المقايضة الخرساء عبر عصور التاريخ ، فلا مفر من الالتجاء إلي معالجة مسألة الصعوبات الأولية للغة . فضلاً عن خطورة التكيف مع قوم غرباء عن البلد وأهله ، غير أن ذلك لا يميط اللثام تماماً عن سر التجارة الصامتة لأن المقايضة بظروفها العادية والمنتشرة عبر التاريخ كانت تحدث بين طرفين يجتمعان معاً من أجل تقدير بضائعهما والوصول إلي نتيجة مرضية عبر مفاوضات تتم عن طريق اللغة ، أو عبر المترجمين الذين وجدوا بشكل دائم في الأسواق ، أو حتي عبر ما تمكن تسميته بحديث السلع والبضائع عن نفسها " ويخلص الباحث إلي اعتماد عدة عوامل ساهمت في هذا الصمت منها الخوف ، والرغبة في الاحتكار حيث لا يمكن للطرفين أن يتقابلا فلا يمكن للطرف الأول ممارسة ضغوط علي الطرف الثاني .[١٣٢]

دور مدينة سجلماسة في تجارة الملح مع السودان الغربي

شكلت مدينة سجلماسة حجر الزاوية في عملية تجارة الملح[١٣٣] ؛ فصارت أبرز وسيط تجاري في منظومة تجارة المغرب وكان الملح أبرز صادرات سجلماسة وتحديداً لمدن السودان الغربي[١٣٤] ، فيذكر البكري أن " معدن الملح يتجهز به إلى مدينة سجلماسة وغانة وسائر

---

[١٣٢] حاتم الطحاوي، التجارة الصامتة ، ص ٦٦ ، ص٦٧.

[١٣٣] لم تقتصر وساطة سجلماسة التجارية مع بلاد السودان الغربي على الملح والذهب فقط، فحسب قول الإدريسي" الإدريسي" وليس ببلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو بلاد الزاب. انظر، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٢٠، وهو ما عبر عنه أيضاً ابن حوقل عندما قال إنها تتمتع بتجارة منقطعة منها إلى بلد السودان.

انظر، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩٩.

[١٣٤] الأصطخري، المسالك والممالك، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٣٤؛ البكري، المغرب، ص ١٧١؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٤، ص ١٠٧؛ الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي، ص ٦١؛ حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٥٧، ٣٨٠؛ صبحي إدريس، تاريخ مدينة سجلماسة، ص ٢٦٥، ص ٢٦٨؛ محمود إسماعيل، الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ) سياستهم الخارجية، دار عين، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٣٠.

ونظراً للأهمية الاقتصادية الكبري للتجارة مع السودان الغربي فإن تلك الأهمية بطبيعة الحال اجتذبت العديد من العناصر لتقوم بدور الوسيط التجاري، فقد لعب اليهود دور الوسيط أو السمسرة. انظر، عطا محمد شحاته، اليهود في بلاد المغرب الأقصى، ص ١٥٧. كما ظهر عدد من الدلالين والسماسرة الذين كانوا يستفيدون من هذه المناسبات التجارية. انظر. محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، ص ٤١٤. كما قامت مجموعات كبيرة من السكان بدور الوساطة التجارية بل والتخصص في تجارة الملح ووصلوا في ذلك لدرجة الاحتراف، انظر إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادي، ص ١٢٦؛ كما اضطلعت بعض القبائل بدور الوسيط التجاري مثل قبيلة هوارة وهم تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد من الجمال الحاملة لقناطير الأموال. انظر، النفوسي، الأزهار

السودان، والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون"[١٣٥]. ومن مدينة سجلماسة يدخل التجار ويخرجون إلى بلاد السودان بالملح .[١٣٦]

ويبدو أن الموضع الجغرافي لسجلماسة قد ساعدها على الريادة التجارية آنذاك، فهي "بؤرة المواصلات، فمنها وإليها تكون تجارة المغرب مع السودان الغربي". [١٣٧] كما أنها تعتبر رأس الطرق القافلية.[١٣٨] فكانت مركزاً تجارياً مرموقاً [١٣٩] ، ولم يقتصر دورها على الوساطة فقط بل كانت فاعلة أيضاً بما وفرته من سلع ولوازم للرحلة التجارية عبر الصحراء خاصة الجمال التي حملت هذه الصادرات[١٤٠] ، حتى أن أرشيبالد لويس عندما أراد التدليل على القوة الاقتصادية لدولة المرابطين وبما تمتعت به من رخاء اقتصادي لم يجد أفضل من ذكر أنهم سيطروا على سجلماسة وهي نهاية طريق معظم القوافل التجارية إلى بلاد السنغال، وأن هذا الطريق حسب وصفه كان عبارة عن " فيضان من الذهب"[١٤١] ، وهو ما يشي بأهمية سجلماسة في حركة التجارة مع بلاد السودان آنذاك والتي شكل الملح عصبها الأساسي.

الرياضية، ص ١٨٥. ولدينا نص يفيد باشتغال البعض بصفة فردية أيضاً في عملية الوساطة التجارية مع بلاد السودان. انظر النفوسي، الأزهار الرياضية، ص ١٩٤، ص١٩٥، حتى أن النفوسي يذكر أن الإمام " عبد الوهاب" كان يحرج على ابنه " أفلح"الدخول في هذه التجارة تورعاً وبعداً عن الشبهات في البيع والشراء. انظر النفوسي، الأزهار الرياضية، ص ١٩٤، ص١٩٥؛ سحر سالم، أضواء علي بعض المراكز التجارية في المغربين الأوسط والأقصي، بحث منشور ضمن كتاب أوراق تاريخية بحرمتوسطية من العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٦، ص ١٦٢، ص١٦٣. ومن الجدير بالذكر أنه في عهد الإمام أفلح اتسع نطاق التجارة اتساعاً عظيماً إلى حد أن بعض التجار أصبح يملك سوقاً بذاته، وعلى عهده كثر المسافرون إلى السودان عن طريق الصحراء للاتجار واستجلاب التبر وربه دراهم ودنانير والتعامل به. انظر السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص ٥٧٩.

وكذلك فقد قام العراقيون بدور هام في عملية الوساطة التجارية بعد أن استقر بعضهم بمدينة سجلماسة وتحركوا منها إلى بلاد السودان الغربي. انظر، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩٩؛ خالد بلعربي، تجارة القوافل، ص ٣٧. وللوقوف على الأهمية الإقتصادية لمدينة سجلماسة راجع، صبحي ادريس، تاريخ مدينة سجلماسة، ص ٢٤٢، ص ٢٨٧.

[١٣٥] المغرب، ص ١٧١.

[١٣٦] ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٤، ص ٢١١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ١٦٤؛ هناء الفقي، تاريخ الصناعة في المغرب والأندلس، ص ٨٣.

[١٣٧] سلمان محمد، إمارة صنهاجة، ص ١٧٧.

[١٣٨] محمد زنبير، المغرب في العصر الوسيط، ص ٩٣.

[١٣٩] محمود إسماعيل، الأغالبة، ص ١٣٠.

[١٤٠] حسن حافظ، سجلماسة، ص ٣٨٨.

[١٤١] القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ص ٣٨٦، ص٣٨٧.

لقد شكلت سجلماسة كما ذكرنا حجر الزاوية في حركة التبادل التجاري بفضل وساطتها وموقعها، وحسب أحد الباحثين الذي شبه سجلماسة بأنها " كميناء في الصحراء" فكان التجار يردون إليها، فمنهم من يبيع بضاعته لتجار القوافل، ومنهم من يجلبها بنفسه عبر سجلماسة.[١٤٢]

وفي الحقيقة فلقد كان لهذه الأهمية التجارية لسجلماسة أثر كبير في انتعاش أحوالها الاقتصادية التي ازدهرت بشكل ملفت ، حتي أن أهلها "من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق غانة التي هي معدن الذهب، فهي بلد تبر وأديم ومنمي تجر ومكسب، وأن أهلها مياسير ولها متاجر إلى بلاد السودان" .[١٤٣] وهو ما عبر عنه الوزان قائلا : "وكانت سجلماسة مدينة آمنة جداً، وذات منازل جميلة ، وكان سكانها أغنياء بسبب التجارة التي كانوا يمارسونها مع بلاد السودان" .[١٤٤] وهو ما دعى ابن الخطيب أيضاً أن يسميها " أرض الثرى الذهبي وأم البلاد المجاورة للسودان" .[١٤٥]

وأكد أحد الكتاب المعاصرين أيضاً على ذات المعنى عندما قال إن " أهلها قد تمتعوا بالثراء العريض"[١٤٦] أو حسب نص الأصطخري أن أهلها أكثر الناس أموالاً "[١٤٧]

ومن دلائل ثراء أهل سجلماسة وضخامة الصفقات التجارية بها أن شاهد عيان قد رأى صكاً فيه حق على رجل من سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار[١٤٨] وكذلك تحدث القلقشندي واصفاً سجلماسة بأن" أهلها مياسير ولها متاجر إلى بلاد السودان يخرجون إليها بالملح والنحاس والودع ويخرجون منها بالذهب والتبر ، ويتفق نص القلقشندي مع نفس النص السابق الذي نقله ابن فضل الله العمري بأنه رأى صكاً لأحدهم على آخر مبلغه أربعون ألف دينار[١٤٩]مدللاً بذلك

---

[١٤٢] محمد زنبير، المغرب في العصر الوسيط، ص ٤١٤.

[١٤٣] آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٤٢؛ بان علي، النشاط التجاري، ص ٧٣.

[١٤٤] وصف أفريقيا، ص ٤٩٩؛ عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص ٥٨٦.

[١٤٥] ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام" تحقيق سيد كسروي حسن، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٣، ص ١٢٠؛ عبد الواحد أكمير، مملكة مالي، ص ١٢٧

[١٤٦] محمود إسماعيل، الأغالبة، ص ١٣٠؛ وعن ثراء سجلماسة انظر أيضاً ، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص ٥٨٦.

[١٤٧] الأصطخري، المسالك والممالك، ص ٣٤؛ محمد بركات البيلي، مدينة سجلماسة ودورها في تجارة الذهب مع السودان الغربي، ص ٧٦.

[١٤٨] مسالك الأبصار، ج٤، ص ١٠٧.

[١٤٩] صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٥، ص ١٦٤.

على ثراء أهل سجلماسة، ونتيجة لدورها الاقتصادي فقد تم التعامل بالدينار السجلماسي خارج حدودها[١٥٠] مما ساهم بشكل كبير في تعزيز القوة الاقتصادية لها.

ولم تقتصر سجلماسة على عملية تجارة الملح فقط بل ساهمت أيضاً في إنتاجه، فمعظم أرض سجلماسة كانت سبخة " أي مالحة"[١٥١] وقد وصفها ابن فضل الله العمري أن "أرضها مليئة بالملح"[١٥٢] كما أنها اشتهرت في عصر بني مدرار بصناعة تكرير الملح.[١٥٣]

وقد ساعد على ازدهار طريق سجلماسة ما توفر لها منذ نشأتها من حكومات منظمة سواء في فترات استقلالها تحت حكم بني مدرار"، أو إبان تبعيتها للفاطمين والمرابطين والموحدين والمرينيين، فلقد حرصت تلك القوى السياسية على انتظام تلك التجارة لما كانت تدره عليها من موارد ضخمة وأرباح طائلة[١٥٤] ، ومن دلائل ذلك أن الفاطمين على سبيل المثال جنوا من سجلماسة نصف ما تحصلوا عليه من المغرب بأكمله.[١٥٥]

صفوة القول، كانت سجلماسة حجر الزاوية في دور الوساطة التجارية في تجارة الملح مع مدن السودان الغربي مما كان له أبلغ الأثر في انتعاش اقتصادها وازدهارها وثراء أهلها.

تطور الكتابة عن إنتاج وتجارة الملح في المغرب

لم تكن المصادر على مستوى واحد في تقديم مادة تاريخية خاصة بإنتاج وتجارة الملح في المغرب الإسلامي، فبعضها قدم معلومات ضافية في حين لم يقدم البعض الآخر سوى شذرات

---

[١٥٠] الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي، ص ١٧٧.

[١٥١] حسن حافظ، سجلماسة، ص ٤٤٥.

[١٥٢] مسالك الأبصار، ج٤، ص ٥١.

[١٥٣] محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار رؤية، القاهرة، ٢٠١٠، ص ١٤.

[١٥٤] محمد بركات البيلي، مدينة سجلماسة، ودورها في تجارة الذهب مع السودان الغربي، ص ٧٩.

[١٥٥] صورة الأرض، ص ٩٩؛ محمد بركات البيلي، مدينة سجلماسة، ص ٧٩.

ومن الجدير بالذكر أن ما حدث من تغيرات في عوامل الإنتاج لدى الملاحات من حيث وفرة إنتاج ممالح تغازي مقابل تراجع ممالح أوليل، أدى هذا إلى انتعاش سجلماسة. انظر، حسن حافظ علوي، سجلماسة، ص ٣٥٧، وانظر أيضاً ،

Devisse (J) ، Routes de commerce et echange en Afrique Occidentale relation avec la mediterranee un essai sur la cpmmerce African medievalee du X au XVI siècle,lere partie. Rparis, 1972,p.56 .

بسيطة، والجدول التالي قد يساعدنا في فهم هذا الأمر، وفي فهم كيف تطورت الرؤية التاريخية للكتابة عن الملح.

الموضوع	المؤرخ	سنة الوفاة	القرن	التصنيف
مواضع إنتاج الملح في المغرب	ابن حوقل	(٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)	الرابع الهجري	جغرافيا
	المهلبي	(٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)	الرابع الهجري	جغرافيا
	البكري	(٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)	الخامس الهجري	جغرافيا
	الإدريسي	(٥٥٨هـ/ ١١٦٢م)	السادس الهجري	رحلة
	مجهول صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار	-	السادس الهجري	جغرافيا
	ياقوت الحموي	(٦٢٦هـ/١٢٢٨م)	السابع الهجري	جغرافيا
	القزويني	(٦٨٢هـ/ ١٢٣٨م)	السابع الهجري	جغرافيا
	ابن سعيد	(٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)	السابع الهجري	جغرافيا
	الدباغ	(٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م)	السابع الهجري	تاريخ
	ابن أبي زرع	(٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)	الثامن الهجري	تاريخ
	ابن بطوطة	(٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)	الثامن الهجري	رحلة
	الزركشي	(٧٩٤هـ/ ١٣٩١م)	الثامن الهجري	تاريخ
	الجزنائي	(٧٦٦هـ /١٣٦٤م)	الثامن الهجري	تاريخ
	ابن الوزان	(٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م)	العاشر الهجري	رحلة

الموضوع	المؤرخ	سنة الوفاة	القرن	التصنيف
تنظيم وإدارة الملاحات	المراكشي	(٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)	السابع الهجري	تاريخ
الأحوال المعيشية لعمال الممالح	القزويني	(٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)	السابع الهجري	جغرافيا
	ابن بطوطة	(٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)	الثامن الهجري	رحلة
	ابن الوزان	(٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م)	العاشر الهجري	رحلة
الحرف والصناعات المرتبطة بالملح	ابن حوقل	(٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)	الرابع الهجري	جغرافيا
	المهلبي	(٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)	الرابع الهجري	جغرافيا
	الإدريسي	(٥٥٨هـ/ ١١٦٢م)	السادس الهجري	رحلة
	مجهول –الاستبصار	-	السادس الهجري	جغرافيا
	التيجاني	(٧١٧هـ/ ١٣١٧م)	الثامن الهجري	رحلة
	ابن الوزان	(٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م)	العاشر الهجري	رحلة
تجارة الملح مع مدن السودان الغربي	ابن حوقل	(٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)	الرابع الهجري	جغرافيا
	البكري	(٤٨٧هـ/ ١٠٨٥م)	الخامس الهجري	جغرافيا
	مجهول –الاستبصار	-	السادس الهجري	جغرافيا
	ابن الزيات	(٦١٧هـ/١٢٢٠م)	السابع الهجري	تاريخ
	القزويني	(٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)	السابع الهجري	جغرافيا
	ابن فضل الله العمري	(٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)	الثامن الهجري	جغرافيا
	ابن الوزان	(٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م)	العاشر الهجري	رحلة
أسعار الملح	القزويني	(٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)	السابع الهجري	جغرافيا
	ابن أبي زرع	(٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)	الثامن الهجري	تاريخ
	ابن فضل الله العمري	(٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)	الثامن الهجري	جغرافيا
	ابن بطوطة	(٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)	الثامن الهجري	رحلة

	ابن الوزان	(٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م)	العاشر الهجري	رحلة
أنواع الملح	البكري	(٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)	الخامس الهجري	جغرافيا
	التجاني	(٧١٧هـ/ ١٣١٧م)	الثامن الهجري	رحلة
	ابن أبي زرع	(٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)	الثامن الهجري	تاريخ
	ابن بطوطة	(٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)	الثامن الهجري	رحلة
الملح وتوثيق العهود	البيذق	(٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)	السادس الهجري	تاريخ
أساطير مرتبطة بالملح	البكري	(٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)	الخامس الهجري	جغرافيا
فتاوى خاصة بالملح	الونشريشي	(٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)	العاشر الهجري	النوازل
الموضوع	المؤرخ	سنة الوفاة	القرن	التصنيف
دور سجلماسة في تجارة الملح كوسيط تجاري	الأصطخري	النصف الأول من القرن الرابع الهجري		جغرافيا
	ابن حوقل	(٣٦٧هـ/ ٣٦٧م)	الرابع الهجري	جغرافيا
	القزويني	(٦٨٢هـ/١٢٣٠م)	السابع الهجري	جغرافيا
	ابن فضل الله العمري	(٧٤٩هـ/١٣٤٨م)	الثامن الهجري	جغرافيا
	القلقشندي	(٨٢٢هـ/١٤١٩م)	التاسع الهجري	كتابات إيوانية
	ابن الوزان	(٩٥٧هـ/١٥٥٠م)	العاشر الهجري	رحلة

يستشف من الجدول السابق:

أن المصادر المذكورة في الجدول لم تكن وحدها المصادر المعتمدة في البحث ، ولكنها كانت المصادر الأساسية التي شكلت محاور البحث ، وبنظرة سريعة يمكننا الوقوف على صورة المصادر التي قدمت لنا معلومات عن إنتاج وتجارة الملح، فأقدم المعلومات التي أتيحت للباحث من القرن الرابع الهجري، وآخرها كانت في القرن العاشر الهجري، ولا يعني ذلك أننا نعدم الإشارات ولكننا أردنا الحديث عن البناء الأساسي للبحث من مصادره الأصلية، كما أن الجدول السابق أيضاً يوضح لنا أن كتب الجغرافيا والرحلات شكلت المادة الأساسية حيث أنها أعطت

صورة شاملة عن كافة محاور الدراسة فاقت كتب التاريخ وهو ما يؤكد ويعزز القيمة التاريخية الكبرى لكتب الجغرافيا والرحلات– كما أن معظم ما جاء في المصادر ركز على محاور بعينها، فكانت الوفرة والحظ الأكبر مثلاً لمواضع إنتاج الملح، وكذلك تجارة الملح مع مدن السودان الغربي، ودور سجلماسة كوسيط تجاري، في حين كانت المعلومات قليلة مثلاً في الحديث عن الأوضاع الاجتماعية لعمال مناجم الملح ، ويبدو أن المهمشين والفقراء كانوا قد همُشوا في المصادر التاريخية تماماً كما همشوا على مسرح الحياة الاجتماعية، حتى أن كل ما ورد عن الأحوال الرثة لهؤلاء العمال ومدى ما عانوه من شظف العيش ومشقة الحياة لم يرد إلا من خلال كتب الرحلات والجغرافيا بشكل عفوي ، وعلى الجانب الآخر احتفت المصادر التاريخية احتفاء ضخماً بالقائمين على حركة التجارة ومدى ثرائهم، وحشدت عشرات النصوص للحديث عن تبادل الملح بالذهب، فكانت النسبة والتناسب بين الطبقات الثرية مع الحرفيين والفقراء كاشفة ومعبرة بصدق عن نسبتهم في الواقع ومعبرة عن الأوضاع المعيشية والمكانة الاجتماعية لكلا الطرفين في المجتمع كما كشفت الدراسة أن بداية الاهتمام بالحديث عن الأوضاع الاجتماعية ومعاينة أحوال الحرفيين فيما يتعلق بهذا البحث كانت منذ القرن السابع الهجري ؛وهو ما يشي بأن الاهتمام بهذه العناصر المهمشة قد أخذ وقتاً طويلاً حتى وجد لنفسه مكاناً بين صفحات الكتابات التي ناقشت هذه القضية.

صفوة القول إن عمليةإنتاج وتجارة الملح شكلت محوراً أساسياً وهاماً من محاور الحياة الاقتصادية المغربية، والتي تماشت مع الأوضاع الاجتماعية بشكل كبير، ومن ثم الأحوال الحضارية سواء من حيث حالة الرخاء أو الاهتمام بالمسالك التجارية أو حتى الكتابة التاريخية، وفي النهاية فإنه يمكننا أن نخلص إلى مجموعة من النتائج على النحو التالي:

–تعددت مواضع إنتاج الملح في المغرب مما كان له أكبر الأثر في الوضعية الاقتصادية لمدن المغرب الأمر الذي جعلها ثقلاً اقتصادياً قوياً في فترة الدراسة.

–أثرت تجارة الملح علي وجود حالة ملحوظة من الرخاء الاجتماعي والوفرة الاقتصادية في المواضع التجارية للملح.

–كان العمل في الملاحات يسير وفق نظام إداري محدد ودقيق من حيث آلية الانتفاع والاستئجار وحفظ حقوق المالك والمستأجر، فضلاً عن مشاركة الدولة في عمليات تأجير الملاحات، كما ضمنت صيغ العقود أيضاً بنوداً للطوارئ في حالة عدم إنتاج الملاحات، وكذا مدد الإيجار وحدود الملاحة ومرافقها ونظام تخزين الملح في الملاحات.

–تعددت أنواع الملح فلم يكن علي مستوي واحد، بل كانت هناك أنواع مختلفة تباينت في جودتها ونقائها وأسعارها، وإن كان الملح الصخري هو الأهم في عمليات التجارة الكبرى.

-كانت أحوال العمال في الممالح ونقاط الإنتاج بائسة، فعاشوا في شظف من العيش في بيوت مبنية من حجارة الملح، وتعرضوا لاستغلال سادتهم، وهذا ما كان يتناقض بطبيعة الحال مع حالة الرفاهية والرخاء التي عاشها التجار والمحتكرين، لذا فإن إشكالية السيد والعبد كانت حاضرة بوضوح في هذه القضية.

-قامت العديد من الصناعات على الملح في المغرب إبان فترة الدراسة أهمها دباغة الجلود وتمليح الأسماك فضلاً عن استخدامات الملح في الأغراض الطبية.

-كانت تجارة الملح في السودان الغربي من أكثر الأمور خصوصية وذلك للندرة الشديدة للملح في هذه المواضع فضلاً عن الوفرة الكبيرة للذهب فتحققت معادلة ملح – ذهب في عمليات التبادل التجاري بين الطرفين نتيجة لقاعدة العرض والطلب، فصار للملح قيمة شرائية كبري، الأمر الذي ساهم في توفير احتياطي ضخم من الذهب لدي الوسطاء التجاريين.

-مثلت مدينة سجلماسة حالة خاصة في عملية تجارة الملح فكانت حجر الزاوية للتبادل التجاري مع بلاد السودان الغربي، الأمر الذي انعكس بجلاء على وضعها الاقتصادي والاجتماعي، وثراء أهلها الذي شهد به معظم المؤرخين.

-شكلت كتب الجغرافيا والرحلات المصدر الأهم لقضية الكتابة عن الملح في المغرب، بالإضافة للمصادر التاريخية التقليدية، وإن كانت الحوادث قد أتت في معظمها دون توثيق زمني، فضلاً عن احتفاء المصادر في سياقها الأعظم بعمليات التجارة والربح والثراء، وعدم الالتفات كثيراً للعمال والمهمشين الذين كانوا الترس الأهم والأكبر في عملية إنتاج الملحفهُ مشوا في المصادر التاريخيةتماماً مثلما هُ مشوا في واقعهم الاجتماعي والاقتصادي.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

ابن أبي زرع (علي بن أبي زرع الفاسي ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠ م)

١–الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة – الرباط، ١٩٧٢.

٢–الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢.

الإدريسي (أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله ت ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م)

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢.

الأصطخري (أبي اسحاق إبراهيم بن محمد ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م)

المسالك والممالك، تحقيق: د/ محمد جابر عبدالعال الحسيني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤.

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ت ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة، إعداد د. الحسيني الحسيني معدي، دار الخلود للنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت.

البكري (أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)

المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت

البيذق (أبي بكر بن علي الصنهاجي ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠ م)

أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١.

التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد ت ٧١٧هـ/ ١٣١٧م)

رحلة التجاني، تقديم: د/ حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، لبيا–تونس، ١٩٨١.

الجزنائي (أبي الحسن علي ت ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م)

جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، الرباط، ١٩٩١.

الجوذري "(أبي علي منصور العزيزي، عاصر العزيز بالله الفاطمي)

سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق: محمد عبد الهادي شعيرة ومحمد كامل حسين، دار الفكر، القاهرة، ١٩٥٤ م.

الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧.

ابن حوقل (أبو القاسم محمد ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)

صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، الطبعة الثانية، القسم الأول، ١٩٣٨.

ابن الخطيب (الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م)

أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام تحقيق سيد كسروي حسن، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط١، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

الدباغ (أبي زيد عبد الرحمن بن محمد ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م)

معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: محمد ماضور، تونس، ١٩٧٨.

الزركشي (أبي عبد الله محمد بن إبراهيم ت ٧٩٤هـ/ ١٣٤٨م)

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، الطبعة الثانية، تونس، د. ت.

ابن الزيات (يوسف بن يحيى بن عيسى التادلي ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م)

التشوف إلى رجال التصوف، المعنتي بنشره، أدولف، مطبوعات أفريقيا الشمالية، الرباط.

ابن سعيد أبي الحسن علي ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)

-بسط الأرض، تطوان – ١٩٥٨.

-كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل المغربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، الجزائر،١٩٨٢.

السلاوي (أحمد بن خالد الناصري ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م)

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، المغرب، د. ت.

الطوسي (نظام الملك ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م)

" سياست نامه " ترجمة د/ حسين بكار، دار الثقافة، الطبعة الثانية، الدوحة، قطر، ١٩٨٧.

ابن عبدالحكم (عبد الرحمن بن عبد الله ت ٢٥٧ هـ/٨٧١ م)

فتوح أفريقيا والأندلس، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٤.

ابن عذاري المراكش (ت نهاية القرن السابع الهجري)

" البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب " دار الثقافة، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨١.

العمري (ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الحبوري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٠.

القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)

آثار البلاد وأخبار العباد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

القلقشندي (أبي العباس أحمد ت ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م)

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تقديم: د/ فوزي محمد أمين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، طبعة مصورة عن طبعة، دار الكتب الخديوية، ٢٠٠٥.

مجهول (كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري/ ١٢م).

الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: د/ سعد زغلول عبد الحميد، دار الشئون الثقافية–بغداد، ١٩٨٦.

المراكشي (محيي الدين عبد الواحد بن علي ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)

وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق: د. حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م)

" اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطمين الخلفا " تحقيق د / جمال الدين الشيال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، د. ت، إيداع سنة ١٩٩٩.

" المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" تقديم د / محمد مصطفى زيادة، دار التحرير، عن طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ.

المهلبي (الحسن بن أحمد ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠ م)

الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، تحقيق: تيسير خلف، التكوين للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، دمشق، ٢٠٠٦.

النعمان (القاضي النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن بن حيون التميمي ت ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م)

افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٧٥.

الهمداني (أبي بكر أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه ت القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)

البلدان، مطبعة بريل، ليدن،١٨٨٣م.

ابن الوزان (الحسين محمد الشهير بليون الأفريقي ت ٩٥٧ هـ/ ١٢٥٠م)

وصف أفريقيا، ترجمة: د/ عبد الرحمن حميدة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.

الونشريشي (أحمد بن يحيي أبو العباس ت ٩١٤هـ / ١٥٠٦ م)
المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١.
اليماني (محمد بن محمد ت ٣٥٠ هـ/ ٩٦١م)
" سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سليمة ووصوله إلى سجلماسة وخروجه منها إلى رقاده " نشر وتحقيق إيفانوف، مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية بعنوان مذكرات في حركة المهدي الفاطمي، المجلد الرابع جـ٢، ديسمبر ١٩٣٦.

ثانيا: المراجع العربية

أبو مصطفي " كمال السيد "
جوانب من الحياة الإجتماعية والإقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوي المعيار المعرب للونشريشي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٦.
إسماعيل " محمود "
-الأدارسة (١٧٢-٣٧٥ هـ) حقائق جديدة، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١.
-الأسطغرافيا والميثولوجيا، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩.
-الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.
-الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ) دار عين للدراسات والبحوث، والقاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠.
الجنحاني " الحبيب")
-المجتمع العربي الإسلامي، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٥.
الحريري " محمد عيسى"
-تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (٦١٠ – ٨٦٩هـ / ١٢١٣ – ١٤٦٥م) دار القلم، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.
الديب " محمد محمود إبراهيم "
-الصناعات الغذائية في مصر، تحليل في التنظيم المكاني والتركيب والأداء، مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٩٩.
المسيري " حسين علي"
-تجارة العراق في العصر العباسي، منشورات، جامعة الكويت، ١٩٨٢.
النفوسي " عبد الله الباروني"

-الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، نسخة قديمة بدون بيانات.

بنمليح " عبد الإله "

-الرق في المغرب والأندلس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤.

حركات " إبراهيم "

-النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط، مطبوعات أفريقيا الشمالية، ١٩٩٦.

حسن " محمد بن حسن "

-القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح الأربع للنشر، تونس، ١٩٨٦.

ريه " عطا علي محمد شحاته"

-اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المريبين والوطاسين، دار الكلمة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

زنيبر" محمد "

-المغرب في العصر الوسيط، والدولة – المدينة – الاقتصاد"، منشورات كلية الآداب، والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

سالم " السيد عبد العزيز "

-المغرب الكبير " العصر الإسلامي " الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦.

سالم " سحر السيد "

-أضواء على بعض المراكز التجارية في المغربين الأوسط والأقصي في القرن الثالث الهجري، بحث منشور في كتاب أوراق تاريخية بحرمتوسطية من العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٦.

علوي " حسن حافظ"

-سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٩٩٧.

فتحة " محمد "

-النوازل الفهقية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، ١٩٩٩.

محمود " حسن أحمد "

-قيام دولة المرابطين " صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطي "، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، ١٩٩٦.

موسى " عز الدين أحمد "

–النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

ثالثا: المراجع الأجنبية المترجمة

كير لانسكي: مارك "

–تاريخ الملح في العالم، ترجمة: أحمد حسن مغربي، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٥.

لومبارد " موريس "

–الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، د. ت.

لويس " أرشيبالد "

–القوى البحرية والتجرية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠–١١٠٠م)، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة: محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د. ت.

هنتس " فالتر"

–المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: د/ كامل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية، د. ت.

رابعاً: البحوث والمقالات

أكمير " عبد الواحد "

–"مملكة مالي في القرن عشر وفقاً لابن خلدون ومعاصرية"، بحث منشور في كتاب ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر – قيام وسقوط امبراطوريات، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٦.

" البدراني " سلمان محمد سلمان "

–"إمارة صنهاجة في أدوغست دراسة في أوضاعها السياسية"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد ٢٠، العدد ٨، ٢٠١٣.

البيلي " محمد بركات "

–"مدينة سجلماسة ودورها في تجارة الذهب مع السودان الغربي"، مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٩.

الطحاوي " حاتم "

–"التجارة الصامتة"، مجلة العربي، الكويت، عدد مايو ٢٠١٦.

بلعربي " خالد "

-"تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في العصر الوسيط"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، غرداية، الجزائر، العدد ١٥، ٢٠١١.

بلهواري " فاطمة "

-" التبادل التجاري بين مدن بلاد المغرب خلال القرن ٤ هـ/ ١٠م"، مجلة إنسانيات، المجلة الجزائرية للأنثربولوجيا، والعلوم الاجتماعية، الجزائر، ٢٠٠٨.

محمد " جمال فوزي"

-"أوضاع السودان الغربي في عهد منسا موسى" (٧١٢-٧٣٨هـ/ ١٣١٢-١٣٣٧م)، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، العدد التاسع، المجلد الأول، مارس ٢٠٠١م.

خامساً: الرسائل الجامعية

إدريس " صبحي عبد المجيد "

-تاريخ مدينة سجلماسة في العصر الإسلامي منذ إنشائها حتى استيلاء المرينين عليها (١٤٠ - ٧٥٧هـ / ٦٦٨ - ١٢٦٩ م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، ١٩٩٥.

البياتي " بان علي محمد "

-النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن (٣-٥ هـ/ ٩-١١م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٤.

الشرقاوي " عوض عبدالسلام عبدالمعطي"

-التاريخ السياسي والحضاري لإباضية جبل نفوسة في القرنين الثاني والثالث الهجريين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، ٢٠٠٦.

الفقي " هناء محمد "

-تاريخ الصناعة في المغرب والأندلس خلال عصري المرابطين والموحدين (٤٤٨-٦٦٨هـ/ ١٠٥٦-١٢٦٩م) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، جامعة طنطا، ٢٠١٣.

بوراس " رفيق"

-الأوضاع الاجتماعية بالمغرب في عهد الخلافة الفاطمية (٢٩٦-٣٦٢هـ/ ٩٠٨-٩٧٢م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسطنطينة، الجزائر، ٢٠٠٧-٢٠٠٨.

ساعو " محمد "

-التجارة والتجار في المغرب الإسلامي القرن (٧-١٠ هـ/ ١٣-١٥م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، ٢٠١٣-٢٠١٤.

سمية " مزدور"

-المجاعات الأوبئة في المغرب الأوسط (٥٨٨-٩٢٧هـ/ ١١٩٢-١٥٢٠م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسطنطينة، الجزائر، ٢٠٠٨-٢٠٠٩.

فريد " قموح"

-الدرر المكنونة في نوازل مازونة لأبي زكريا يحيى بن موسى بن عيسى المازوني ت (٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م) دراسة وتحقيق لمسائل الجهاد والإيمان والنذور، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٠-٢٠١١.

سادسا: المراجع الأجنبية

-Devisse (J) : Routes de commerce et echange en Afrique Occidentale relation avec la mediterranee un essai sur la cpmmerce African medievalee du X au XVI siècle,lere partie. Paris, 1972.